

الرابطة النقشبندية

أثرها في تزكية النفوس وأقوال العلماء فيها

تأليف

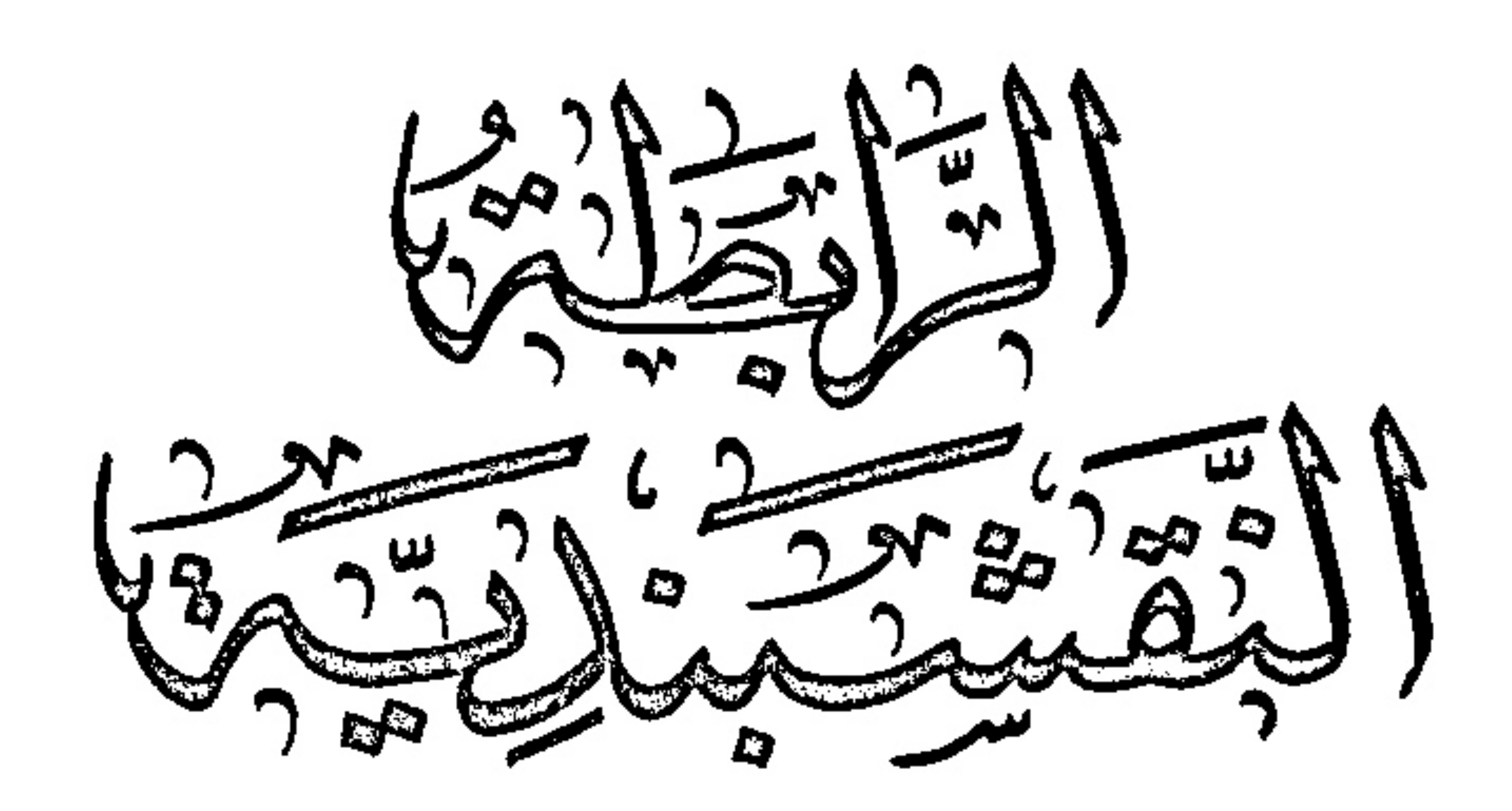
الدكتور عبد الرحيم الشيخ محمد معصوم الخزنوي



مكتبة سيدا

للطباعة والنشر والتوزيع

دياربكر - تركيا



الرابطة النقشبندية

أثرها في تزكية النفوس وأقوال العلماء فيها

تأليف

الدكتور عبد الرحيم الشيخ محمد معصوم الخزنوي

مكتبة سيدا

للطباعة والنشر والتوزيع

ديار بكر - تركيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

□ لقد اعتاد الكُتّابُ والمؤلّفون اليوم : أن يهدوا ثمرات جهودهم ونتاج مساعيهم إلى شخصيات مرتبطة بهم ، أو هم مرتبطون بها ، وإذا أردنا أن نَتَّبِعَ ما سَنُّوه فمن واجب الشكر والاعتراف بالجميل أن نقول :

□ أَحَقُّ وأَجْدَرُ مَنْ يُهدَى إليهم هذا الجهد المتواضع منِّي ، الذي هو من ثمار جهودهم الجبّارة في خدمة الإسلام ونفع المسلمين :

□ فإلىٰ وارث مقامات الأولياء والعارفين ، مظهر الشريعة الغرّاء ومُحْيي آداب الطريقة النقشبندية البيضاء ، جَدِّي الشيخ « أحمد الخزنوي » .

□ وإلىٰ الظّافر بدولة الأخلاق المحمَّدية والدي الشيخ « محمد معصوم » .

□ وإلىٰ الفاضل الألمعي المحتاج إلى ربّه المعين عمِّي الشيخ « علاء الدِّين » .

□ وإلىٰ الذَّكيِّ اللَّوْزعي ، السّاعي في ترويج الدِّين ، عمِّي الشيخ « عزّ الدِّين » .

□ عليهم جميعاً من الله الرحمة والرضوان .

□ وإلى عميد العائلة الخَزْنويّة ، وأمل الأتباع في إحياء آداب الشيخ « الخزنوي » صاحب الأخلاق الحميدة ، عمّي الشيخ « عبد الغني » حفظه الله ، وأمدَّ الله في عمره ، آمين .

□ □ □

المقدمة

○ الْحَمْدُ للهِ حَمْداً يُوافِي نِعَمَهُ ، ويُكافِيءُ مَزِيدَهُ ، اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ ، سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ لا أُحْصِي ثَنَاءً عليكَ ، أَنْتَ كما أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ .

○ والصَّلاة والسَّلام عَلَى سَيِّدنا مُحَمَّدٍ خَيْرِ خَلْقِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، قَادَةِ الْحَقِّ ، وَسَادَةِ الخَلْق ، وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثيراً .

○ اللَّهُمَّ عَلِّمْنا ما يَنْفَعُنَا ، وَانْفَعْنَا بِما عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ .

□ اللَّهُمَّ زِدْنا عِلْماً نَافِعاً ، وَارْزُقْنا نِيَّةً حَسَنَةً ، وَعَمَلاً صالِحاً ، وَفَهْماً صَحِيحاً ، وَإِخلاصاً فِي الْعَمَلِ ، وَفِقْهاً فِي الدِّينِ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

□ أما بعد ؛

□ ما خطر في البال ولا حدَّثْتُ نَفْسي يوماً أن أقفَ موقف المخالف ، وأكتبَ أو أنقل قولًا أو رأياً فيه رَدٌّ أوْ شِبْهُ رَدٍّ ، على أمثال الدكتور محمد سعيد البوطي ؛ بل كنت أحدِّث نفسي بأنني إن استطعت أن أصنعَ شيئاً يوماً مَا ، يكون من تقديم الدكتور حفظه الله ، حيثُ كنتُ ـ ولا زلتُ ـ والحمد لله أعتبر نفسي من الموافقين ؛ بل من الموالين له والمعترفين بفضله وعلمه . . ولكن كما قال الشاعر :

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّاهُ الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ   تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لا تَشْتَهِي السُّفُنُ

☐ ولكن مع وقوفي في الموقف الذي لم أخترْهُ ، بذلتُ قُصارى جهدي في محاولتي هذه ، من نقل أقوال وآراء العلماء ، في حكم « الرابطة » وهي حقيقة في صميم قناعتي ، أن أختار أجمل الأقوال ، وألطف الكلمات ، وأهدأ العبارات . .

☐ حتى بلغ بيَ الأمر أحياناً ، وأنا أنقل أقوال جهابذة العلم وأساطين الحكمة ، فيما نحن فيه ، فأتجاوز الأعراف فأبدل أو أغير عواصف كلماتهم بنسيم العبارات .

☐ وحسب ظني أنِّي قَدَّمْتُ كُلَّ ذلك على طبق ذهبي من الاحترام والتقدير والإكرام لشخص الدكتور ، والقُرَّاء الأعزَّاء .

☐ ☐ ☐

المدخل

□ ما إنْ قرَعَ سمعي : أنَّ كتاباً للشيخ الدكتور « محمد سعيد رمضان البوطي » أشرق في الأفق ، وظهر في الساحة ، إلَّا وتحرَّكَتْ فيَّ دواعي الحب ومظاهر الشوق الشديدين ، لمطالعة هذا الكتاب ، لما كنتُ أعتقد وأرى في مؤلفاته ما أكنُّه أو أضمره في خلجات قلبي ، وأعماق وجداني ، من آثار إيمان وعقيدة سليمة إن شاء الله تعالى ، تدفعني ولا زالتا ـ والحمد لله ربِّ العالمين ـ إلى تقدير واحترام هذا الرجل العالِم ، ونجل ذلك الرجل الصَّالح الشيخ « مُلاَّ رمضان البوطي » عملاً بما روي عن إمام المعلمين سيدنا محمد ﷺ أنه قال :

□ « ثَلاثَةٌ لا يَسْتَخِفُّ بِهِمْ إلَّا مُنافِقٌ : ذُو الشَّيْبَةِ فِي الإِسْلاَمِ ، وَذُو الْعِلْمِ ، وَإمامٌ مُقْسِطٌ »[1] .

□ وروى الإمام أحمد بإسناد حسن : « لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنا ، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنا ، وَيَعْرِفْ لِعالِمِنا »[2] .

□ وصَحَّ عنه ﷺ : « الْبَرَكَةُ مَعَ أَكابِرِكُمْ »[3] .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير [مجمع الزوائد : ١/ ١٢٧] عن أبي أُمامة رضي

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، والحاكم في المستدرك : (١/ ١٢٢) عن عبادة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك : (١/ ٦٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما

□ وقال ﷺ : « تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ والْوَقَارَ ، وتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ مِنْهُ »[1] .

□ ما تذكرتُ هذا الشيخ الصّالح إلّا وتذكرتُ معه وتصوّرتُ سلسلة ذهبية من كبار العلماء العاملين ، والمربِّين المخلصين ، وتنبهت من سبات عميق ، على صوت ساكن وهادىء ، من بطن ماضٍ بعيد وقريب ، رافقني من طفولتي وحتى بعضٍ من كهولتي ، إلى صوت شيخ ومعلِّم ، ومرشد كامل ، ومربٍّ كبير : عمِّي ووالدي بعد والدي ، الشيخ « عزّ الدين » ابن الشيخ « أحمد الخزنوي » .

□ كلما أردتُ أو أراد واحد من العائلة زيارة الشام ، كانت وصيته التي عوَّدنا عليها : زيارة علماءها ومشايخها ، أمواتهم وأحياءهم ، ويرغِّبنا ؛ بل يأمرنا أحياناً بمصاحبتهم وحضور مجالسهم ، والتبرُّك بآثارهم ، والعمل بأقوالهم ، وطلب الدعوات منهم ، مثل الشيخ « أحمد كفتارو » أمدَّ الله في عمره ، ونفع الله المسلمين بعلومه ، والشيخ « مكي الكتاني » رحمة الله عليه وقدس الله سره ، وغيرهم ؛ وكان يخصُّ بالذِّكر كثيراً ؛ بل يلح أحياناً بزيارة ذلك الشيخ الصّالح « مُلاَّ رمضان البوطي » رحمة الله عليه ، لما كان يتوسَّم فيه : الصَّلاح والنزاهة والإخلاص ، إلى درجة أنه كان ـ رحمة الله عليهما ـ يشكو إليه همومه وألمه ، وهموم الدَّعوة ، وهموم الأهل والنّاس ، وقبولهم لدعوته ، ورفضهم لها ، ويفتح له قلبه ويشكي حاله . . فيخفف هذا بدَوْرِهِ عليه ما أوجع ظهره ، وأحزن قلبه ، ويمسح على صدره ، ويوصيه بالتحلِّي بالصبر ، والتأسِّي بالسلف

---

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط [مجمع الزوائد : ١٢٩/١] عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الصَّالح ، والمخلصين لدينهم ودعوتهم ، وبوالده الشيخ « أحمد الخزنوي » رحمة الله عليه ، الذي كان مثال الصبر على البلاء ، وصمود الجبال في سبيل نشر دعوته ، في تعاليم دين الإسلام الحنيف ، وتحمُّل الأذى في سبيل ذلك من المعترضين في طريق دعوته ، من شتى شرائح مجتمعه ، من شيوخ المنطقة ، وأمراء القبائل ، والدولة التركية ، والحكومة الفرنسية المستعمرة ؛ حتى بلغت بها أن نفته أكثر من مرَّة !

كلُّ تلك الأسباب جعلتني أُعَظِمُ هذا الرجل الصَّالح ، وأحترمه ظاهراً ـ في حضوره وعند رؤيته واللقاء به ، بما قد علمني شيخي وعمِّي الذي قد تشرفت بذكره آنفاً ـ وباطناً في غيابه وأثناء ذكر سيرته ، بما كنت أخفيه حيناً وأظهره أحياناً ، من حبٍّ وتقدير ، واحترام وحسن ظَنٍّ قويّ فيه ، من أنه من صنف الرعيل الأول ، خَلْقاً وخُلُقاً ، وعلماً وعملاً ، وتقىً وورعاً ، وإخلاصاً وتواضعاً .

□ أجل ؛ كنّا نزوره ـ كما ذكرتُ لكم ـ في داره الكائنة في حيِّ الأكراد بركن الدِّين في مدينة دمشق ، فنرى عنده ؛ بل نلمس منه دفء الأهل ، وحرارة القرابة ، فكان يكرمنا في داره إكرام من يؤمن بالله واليوم الآخر . . وهو الشيخ الهَرِم ، ولا يدعنا في الوداع إلَّا عند خارج باب الدار ، فحين ما نقسم بأن لا يخرج معنا ، ولأنه بخروجه يؤذينا ، فكان يقول : هكذا تعلَّمنا ، أو أُمرنا بأن نفعل مع أولاد وأهل العلماء والصَّالحين ، كل ذلك كان وفاء منه للشيخ الجدّ « أحمد الخزنوي » رحمة الله عليهما .

فكان بعمله هذا يعلو ويعلو ، فيكبر في عيوننا ، ويعظم في قلوبنا أكثر وأكثر ، ويترجم بتعامله هذا ما كنا نقرؤه في كتب السادات النقشبنديين ، قدس الله أسرارهم العليّة ، عن رجال قد تحلَّوا بمثل هذه

الأخلاق الحسنة ، والمزايا الجميلة والصفات الحميدة .

□ أجل ، تذكرت الشيخ الصّالح بقامته النحيفة ، من قيام الليل ، وسهر العبادة ، وهو يزور عمّي الشيخ عزّ الدين الخزنوي في فاتحة السبعينات ، في منزل المطوف الشيخ عبد الله مِيمش ، رحمة الله عليهم جميعاً ، بين الحين والحين في « مكة المكرمة » وقد شرّفني الله تعالى بصحبته في تلك الحجة المباركة ، ولعمري لقد حظيتُ حينها بسعادة ما بعدها سعادة ،

وكان الشيخ « مُلاّ » رحمة الله عليه قد قصد العمرة في تلك السنة من أول شهر رمضان المبارك ، ولكن طيب المكان وأنس المكين جعلتاه ؛ بل أنسيتاه الأهل والوطن ، فاستراح إلى الإقامة في ضيافة الله عزَّ وجلَّ ، والديار المقدسة ، حتى موسم الحج ، ومجيء النّاس إلى بيت الله الحرام من كلِّ فجٍّ عميق .

فكنا نجلس عندهم في مكان الأدب والاحترام ، جلسة المتعلم المتلهف ، ونستمع إلى تبادل أحاديث الشيخين ، في الفقه وأصوله ، وعلوم الدِّين ، وأحوال المسلمين ، وسيرة الصَّالحين ، وكان الغالب على المجلس الحديث عن رجال التصوّف من السَّادة النقشبنديين ، ومدى شفقتهم على عباد الله ، من أمّة سيدنا محمد ﷺ ، وعن آدابهم في نفع المسلمين بالرجوع بهم إلى تعاليم دينهم الحنيف ، والتمسُّك بِسُنَّة نبيِّهم الكريم ، وعن دِقَّة وقوف هؤلاء السَّادة على حدود أحكام كتاب الله عزَّ وجلَّ ، ومتابعة السُّنَّة السَّنِيَّة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحيّة ، وكيف أنهم اتخذوا من مسلك وآثار الصحابة الكرام ـ رضي الله تعالى عنهم ـ سبيلاً وطريقاً في الوصول إلى جناب الحقِّ سبحانه وتعالى ، وكان جُلُّ همهم إحياء السُّنَن المرضية ، وقمع البدع الرديّة ، وإحقاق الحقّ ، ونشر تعاليم الدِّين الإسلامي الحنيف ، في كافة أنحاء العالم ، ليترفه في ظلِّ عدالة

شريعة السماء ، أسودهم وأبيضهم ، عربهم وعجمهم ، أميرهم وحقيرهم ، والرجوع بالمسلمين إلى دينهم الصحيح ، وصراط الله المستقيم ، والسَّيْر بهم في نهج الصحابة الكرام ، والسَّلف الصالح ، رضي الله تعالى عنهم ، فيفوزوا برضى الله سبحانه وتعالى ، ويحظوا بعزَّةٍ ومدنيَّةٍ في هذه الدنيا ، ونعيم وسعادة أبدية ، في يوم :

﴿ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء : ٨٨ - ٨٩] .

وفي تلك الجلسات كانت تغمر على الجالسين السعادة ، وتغشاهم السكينة ، وتحفُّهم الملائكة ، وكان الواحد منّا يشعر بحضور تامٍّ ، وارتباط وانجذاب شديد إلى الله عزَّ وجلَّ ، فتقشعر الجلود ، وتفيض الأعين منّا بالدموع ، لو استمرت الحالة هذه منّا حيناً لتحولنا إلى ملائكة ولكن بشكل بشر ، أو لرأينا الملائكة بيننا جهاراً .

وما أثار دهشتي وزاد إعجابي بالشيخ « مُلاّ » رحمة الله عليه حينها ، أنَّ معظم إقامته وجُلَّ وقته قد قضاها في « مكة المكرمة » في الحرم الشريف ، زادها الله رفعة وتشريفاً ، على خلاف سُنَّة بعض العلماء والعارفين ، حيث يستغلون كل مدتهم بالإقامة في « المدينة المنورة » على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ، حباً منهم بجوار المصطفى ﷺ .

حتى بلغ بي الإعجاب والإكبار ، فدفعني فضولي فسألت عمّي الشيخ « عزّ الدِّين » عليه رحمة الله عن سرِّ ذلك ؟

فأجابني رحمة الله عليه وقدس الله سره : أنَّ الشيخ « مُلاّ رمضان » وأمثاله قد غلب على طبعهم ومزاجهم الشريعة والسُنَّة المطهرة ، فالعبادة في « مكة » حرم الله عزَّ وجلَّ ، وعند أول بيت وضع للنَّاس لعبادة الله

تعالى ، تزداد أضعافاً ، وأفضل بدرجات من الحرم المدني ، وقد بلغ الشيخ مقام الإحسان ، وتجاوز الحواجز والوسائط ، فيستأنس بالله عزَّ وجلَّ ، وبحبيبه المصطفى ﷺ في حرمه وأمنه .

ثم قال لي مازحاً ، تعلو على قسمات وجهه ابتسامته الجميلة : ومثلك يروم المدينة ويفضِّل البقاء بها ، ويطلب جوار النَّبيِّ ﷺ ويستأنس به ﷺ ، لأنَّ في النَّبيِّ وجه مناسبة ، وهو أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَشَرٌ مثلنا وإنسان ، ووسيلتنا إلى الله سبحانه وتعالى ، في الدنيا والآخرة ، فيدفعنا التجانس والاستئناس في تفضيل الإقامة والبقاء في « المدينة المنورة » على ساكنها أفضل السَّلام والتحية . ومن هذا الباب وضع النقشبنديون من جملة آدابهم : « الرابطة » كوسيلة للوصول إلى ذلك المقام الرفيع ، مقام الإحسان :

« أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[1] .

وإلى مقام غلبة الشرع على الطبيعة البشرية ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] .

☐ .. ويتكلم الشيخ « مُلاّ » رحمة الله عليه عن رحلاته الكثيرة إلى الجزيرة ، وسعيه في طلب لقمة العيش الحلال ، وبقائه في « خزنة » قرية الشيخ « أحمد الخزنوي » في ضيافته ، قدس الله سره العزيز ، وكيف كانت « خزنة » ومن بعدها « تل معروف » ـ ولا زالتا والحمد لله ـ محطة

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (٥٠) ومسلم ، رقم : (٨) .

لقاء الإخوان والمحبين ، ونقطة تجمع العلماء العاملين ، ومركز تدريب للمربين والمرشدين ، ومهوى أفئدة طلبة العلم والمريدين ، يلتفون حول شيخهم ومرشدهم الكبير ، يتزودون بنفحات قُدُسِيَّة ، وفيوضيات ربّانية ، ينجلي من على قلوبهم ران الذنوب ، وسواد المعصية .

□ ويتكلم عن مدرسة ومعهد الشيخ للعلوم الشرعية في « خزنة » وكيف أنها كادت أن تكون الوحيدة ؛ بل الفريدة في مكانها وزمانها ، لنشر العلم والفضيلة ، وتعليم أبناء المسلمين علوم دينهم ، وآداب نبيهم محمد ﷺ .

تُخَرِّجُ الدُّفْعَةَ بعد الدُّفْعَةِ من العلماء والدُّعاة المخلصين ، فيتعقبون الجهالة في أعماق الصحراء وأطراف البادية ، وفي شعب الجبال وبطون الأودية ، حتى غيَّروا معالم المنطقة ، فبدَّلُوا جهلها بعلم ، وظلامها بنور .

ويتكلم عن أسلوب الشيخ في الدَّعوة إلى دين الله ، ونشر تعاليم الإسلام بين النَّاس ، وإحياء السُّنَّة ، ومقارعة البدعة ، ومحاربة التقاليد والعادات البالية ، المستفحلة في النفوس ، والمسيطرة على البلاد ، والمخالفات الشرعية ، بإرسال الرسل والعلماء من تلامذته وطلاب مدرسته ، إلى المناطق القريبة والبعيدة ، والبلاد القاصية والدانية ، فذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ : العالم العامل والفاضل الشيخ « مُلاَّ عبد اللطيف » أرسله إلى عامودا ، والشيخ الحسيب الشيخ « أحمد الحسيني » إلى الحسكة ، وأصبح مفتياً فيها ، والشيخ « مُلاَّ صالح الكُرَمي » إلى منطقة عين العرب ، فهدى الله بهم النَّاس إلى الدِّين الحنيف ، والشيخ « جنيد » أرسله إلى لبنان ، فلم يكن أقل من صاحبه ، والشيخ « عبد الحكيم الحسيني » المشهور بالغوث ، وغيره إلى أنحاء

تركيا ، كلهم كانوا دعاة خير ، وعلماء مخلصين ، رحمة الله عليهم ، وعلى شيخهم أجمعين .

فراجتْ دعوته ، وانتشر أتباعه في الدّعوة والإرشاد في شتى أنحاء العالم .

وكان يشير بقوله ـ رحمة الله عليه ـ وإلى جانب ما كان يتحلى به الشيخ « أحمد » قُدِّسَ سِرُّه من مكارم الأخلاق ، والتمسك الشديد بالكتاب والسُّنَّة ، والاستقامة على حدود الشرع ، كان هناك سببان رئيسان في امتيازه ـ رحمة الله عليه ـ على أقرانه ، وهو عدم تكلمه وتدخله في الشؤون السياسية وطلبه المناصب ، والتكالب على كراسي الوظيفة أوّلًا ، وعدم طلبه أموال الناس ورقابهم ثانياً ؛ بل كان يقدِّم ويُسَخِّرُ ماله وأولاده في خدمة العلم والعلماء ، وطلبة العلم ، وبناء المساجد والمدارس ، وإعانة الفقراء والأيتام والأرامل ، والسعي في نشر المعروف والإحسان في كل مكان .

وتكلم عن مسجد الشيخ قدس سره في « خزنة » وعن ذكريات جميلة فيها .

أَلَا يـا ابْنَتَـيْ سَلْمَـى سَـلَامِـي عَلَيْكُمـا

هَـلِ الأَزْمـنُ الـلَّاتـي مَضَيْـنَ رَوَاجِـعُ ؟

وعن أيام المسجد ولياليه ، وكيف كان يزدحم بالقائمين والعابدين ، والرُّكَّعِ السجود ، من العلماء العاملين ، والمريدين المخلصين ، آناء الليل وأطراف النهار ، وعن الصمت الرهيب وسكونِ ليلٍ أشبه ما يكون بليال القدر ، يخيم على أرجاء المسجد بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء ، والمسجد ليس فيه موطىء قدم من الضيوف والزائرين ، الذين

يطلبون العلم ، بكتاب ربِّهم ، وسُنَّة نبيِّهم ﷺ ، كل واحد منهم صامت ساكن لا يتحرَّك ، كأنَّما على رؤوسهم الطير ، يعملون « الرابطة » الشريفة ، المعروفة عند السادة النقشبنديين ، قدس الله أسرارهم العليَّة .

وعن جلسة العلماء وطلبة العلم حول شيخهم وأستاذهم ، ومدى تأدبهم بآداب مجلس شيخهم ، من غضّ طرْف ، وإطراق رأس ، ولا يتكلم أحدهم إلَّا بعد إذن أو طلب من الشيخ .

وتساءلت في نفسي حينها : ما دام الشيخ « مُلَّا رمضان » قد عرف كل هذا عن الشيخ أحمد رحمة الله عليه ، فلماذا لم يأخذ عنه الطريقة النقشبندية كأقرانه من العلماء العاملين ؟ وكدت أفصح عن سؤالي ، إلَّا أنَّ عمي الشيخ « عز الدين » رحمة الله عليه قال :

إن الشيخ « مُلَّا رمضان » قال لنا مراراً : إنَّ ممَّا تأسَّف عليه ـ في ذلك الوقت ـ هو عدم مبايعته الشيخ وأخذ الطريقة منه ، لأنَّ الشيخ كان في نظره من الرجال الكُمَّل ، الذين يؤخذ من أمثالهم العلم والدِّين والطريقة ، ولما كان يرى فيه مثال العالم المخلص ، الذي ينوي بأعماله وجه الله عزَّ وجل .

نعم ؛ وإني لم أبغ بما ذكرت أن أعرِّف بالشيخ « الخزنوي » لأنه ـ والحمد لله ـ غنيٌّ عن التعريف .

فَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هـذَا بِضَائِرِهِ   العُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ

ولكن كلما أردته بما ذكرت وبما أذكر أن أحكم الرباط بيدٍ على جرح قد فجه الدكتور بكلمات في كتابه « هذا والدي » وأشير بالأخرى على مدى الارتباط الوثيق والعلاقة الوطيدة التي تربط بين الشيخ « مُلَّا رمضان البوطي » وبين الشيخ « الخزنوي » وأنجاله الكرام ، من محبَّة وتزاور ،

ولقاء مستمر ، وإقامة طويلة عند الشيخ أحمد قدس سره في قرية « خزنة »
كما كان يذكر الشيخ « مُلاَّ » ، وكان يعرف ؛ بل وقد كان يرى مراراً الشيخ
وعلماءه وأتباعه يعملون « الرابطة » المعروفة لديهم .

كل ذلك يطرح سؤالاً وهو : هل من المعقول أن يحتفظ الشيخ « مُلاَّ » بإنكاره على « الرابطة » واعتراضه عليها بأنها بدعة رديئة ووسيلة مكروهة ؛ بل محرَّمة ، طيلة السنين التي خلت ؟ وهو الشيخ الذي لا يداري ولا يماري ! حتى يأتي الدكتور ـ حفظه الله ـ فيفصح عنها بعد موته ـ رحمة الله عليه ـ في كتابٍ يترجم فيه مناقبه ومحاسنه وسيرته ؟ نعم ؛ وإن كان أهل مكة أدرى بشعابها ، ولكن لم يسبق أن سمعنا أنه ـ رحمة الله عليه ـ أنكر هذا الأمر على أهلها ، لا تصريحاً ولا تلويحاً ؛ بل كان يرى فيهم مثال الدُّعاة الصّالحين ، والعاملين المخلصين ، الذين يسعَوْن بأنفسهم وأموالهم لنشر دين الله ، وإعلاء كلمته ، في كلِّ زمان ومكان ، وكان يعرف أنه لا عودة للإسلام إلّا على جسر من جسورهم ، ويعرف الأستاذ الدكتور نفسه ذلك منهم ، وعلى سبيل المثال قد عرف للشيخ « عزِّ الدين » رحمة الله عليه نفسِهِ ، خصوصاً مواقف حرجة ، وفتن عظيمة ، وأعاصير شديدة تزعزع الشمم من الجبال ، وذوي البأس من الرجال ، فلم تحرك منه ساكناً ، كل ذلك لخشيته من الله سبحانه وتعالى ، وورعه وتقواه ، ودقته في الوقوف عند حدود الشرع ، وهذا العزم والثبات إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أنه رجل من أهل الله ، الذين : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] وكان مع هذا الحرص الشديد على الشريعة يأمر بالرابطة ، ويرى فيها الوسيلة الناجحة في الوصول بها إلى مقام الإحسان ، حتى أمرني بها في الترويحة (أي في الاستراحة بين الركعات الأربع في صلاة التراويح) بعد أن سألني : هل رأيت مأثوراً يقال

هنا ؟ فقلت : لم يمر معي شيء من هذا . فقال رحمة الله عليه : كان الشيخ الوالد قدس سره يأمرنا بالرابطة هنا ، فإذا أردتَ فافعل .

اللهم إلَّا إن غيَّر الشيخ « مُلاَّ » رحمة الله عليه رأيه في الأمر ، ومع هذا ـ أيضاً ـ لا بأس على أمثاله ، لأنه من يطلع على أحوال القوم يرى الكثير من هذا ، حتى كان قول الإمام الشافعي رحمة الله عليه في مصر غير قوله في بغداد .

ورغم ما نقله الأستاذ الدكتور ـ حفظه الله ـ بنوع تهجم وطعن ، رأيَ والده ـ رحمة الله عليه ـ في « الرابطة » وإنكاره لها ، واعتبارها بدعة لا يجوز العمل بها ، ورغم اعتقاد الكثير بها ، وقناعتهم بأنَّ « الرابطة » من أهم الوسائل المحمودة ، الموصلة إلى التعرف على الله كما ينبغي ، والتمسك بالدِّين الحنيف ، كما أمر به صاحب الدِّين ، لَمَّا يجعلني أن أغير أو أبدل رأيي أو نظرتي في ذلك الشيخ الصالح ، الذي عهدي به أنه كان يحسن الظنَّ بالعلماء والمسلمين ، ويؤوِّل للعارفين وأهل الله أقوالهم ، كما ذكر الدكتور ذلك بنفسه ؛ بل زادني ذكر سيرتِهِ تقديرُه واحترامُه ، وقلت :

هذا رأيه وقوله واجتهاده ، وهو ليس حجة على من خالفه ، وكما أنَّ كل قول يؤخذ به ويرد إلَّا قول المصطفى ﷺ ، ومن اطَّلع على أحوال علماء المسلمين ، وأقوال السلف الصالح ، يرى الكثير الكثير من هذا القبيل ، وكما لم تكن ساعة اختلاف آراء واجتهاد علماء المسلمين من السلف الصالح سبباً في اختلاف قلوبهم وإعراضهم عن بعضهم ؛ بل كان ذلك رحمة وسبباً لتوحيد كلمتهم ، ودليلاً على سماحة دينهم ، فهذا حنفي خالف شافعي ، وذاك حنبلي خالف مالكي ، حتى إنَّ كتب المذهب الواحد تزدحم بالآراء والاجتهادات المختلفة ، ما يعجز عن حملها

الجمال ، ونرجوا الله أن نكون من أتباعهم فنتخلق بأخلاقهم في جميع أعمالنا ، ونعمل بقاعدتهم المعروفة وهي :

☐ « إنَّ قولي هو الصواب ويحتمل الخطأ ، وقول غيري خطأ ولكن يحتمل الصواب » .

ومع كلِّ احترام وتقدير للشيخ « مُلاّ » رحمة الله عليه والأستاذ الدكتور نفع الله المسلمين بعلومه : أقول : إنَّ مثلي لا يرد على عالم كالشيخ « مُلاّ رمضان » رحمة الله عليه ، ولكن ما صنعت من نقل أقوال العلماء ، ورجال التصوُّف من هوامش الكتب وبطون المخطوطات ـ إن صح تعبيري هذا ـ أرجو أن يكون من قبيل قول المأموم : « سُبْحانَ الله » عند سهو إمامه ، وكُلِّي اعتقاد وقناعة ، بعد الذي نقلته من أقوال وآراء من هم حجة وعمدة في هذا الفن ، وكان الشيخ موجوداً وحيّاً رحمة الله عليه ، واطّلع على أقوال جهابذة العلم وأساطين التصوف ، وبالخصوص على رأي الإمام الربّاني ، الذي أشار هو إليه عند حكمه على « الرابطة » واعتبره حجة في ذلك ، إلَّا لقال : أنا أحق وأجدر من الناس باتِّباع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين قال ـ وهو عمر الفاروق ـ : « أَخْطَأَ عُمَرُ ، وَأَصَابَتِ امْرَأَةٌ » ! .

ولقال بطيب خاطر واطمئنان فؤاد ، وبكل فخر واعتزاز : أخطأ « مُلاَّ رمضان » وأصاب الإمام الربّاني المجدد للألف الثاني ، قدس الله سره .

ولكن ما آلمني وغيري ، وفجَّ في قلبي فجّاً وجرحاً ، أرجو الله عزَّ وجلَّ أن يمسح عليه بيد عنايته ، فَيَلُمَّ الجرح وَيَجْبُرَ الكسر ، إنه على كل شيء قدير : هو ما وضعني الأستاذ الدكتور ـ حفظه الله ـ في موقفِ امرىء خُيِّرَ بين أمرين ، أحلاهما مُرٌّ :

الأمر الأول : أن ألفظ خمار الحشمة ، وألقي جلباب الحياء ، وأفك قيد اللسان ، وأترك القلم حبله على غاربه ، ليسطر كلمات في العتاب واللَّوْم والرد على أستاذ وشيخ لا زلتُ ـ والحمد لله ـ أكنُّ له كلَّ احترام وتقدير ، وهو يطعن ويتكلم على شيخ عالم معروف بورعه وتقواه ، وقد قطعت على نفسي عهداً أن أدافع عنه وعن أمثاله ، بلساني وقلمي ما استطعت ، وليتَ الدكتور احتفظ في كتابه : « هذا والدي » عن ذكر نسبة الشيخ وبلده لنفسه ، كما احتفظ لنفسه بذكر اسمه ، كقول النبي ﷺ في تعليم بعض النَّاس وتنبيههم :

« مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا ، أَوْ يَقُولُونَ كَذَا ؟ »[1] .

ولكن لَعَمْري كأنه قال بملىء فيه ، وأشار بكل جوارحه : أقصد بكلامي هذا فلاناً من النّاس ، قالها عند المناسبة التي دعته أن يذكر ما ذكر ، والتي اقتضت حسب قوله ، أن يتكلم على الشيخ التقيّ ، بما لا يرضي الله والنّاس ، ويتهمه بالدَّجل والتزيُّف ، وبكلمات يدّعي الدكتور أنه سمعها من شريط بصوت الشيخ ، وهو يعلم أنَّ مثل هذه الكلمات لا يتفوّه بها آحادُ النّاس ، فكيف بعالِم عاملٍ ، وداعٍ مخلص ، معروف بعلمه وورعه ، ودقيق في استقامته على حدود الشرع وتتبع أحكام الكتاب والسُّنَّة ؟! .

والأمر الثاني : أنْ أسكُتَ وأرى عالِماً جليلاً يُخْذَلُ ، ويُشار إليه بأَصابع الاتِّهام ، وهو بريء ، وعهدي بهذا الشيخ من قريب وبعيد أنه كان عالماً عاملاً ، ومخلصاً ورعاً ، معروفاً بين من يعرفوه بشدَّة تقواه ودقَّة وقوفه عند حدود الشَّرع ، والتمسُّك بكتاب الله ، وسُنَّة رسوله ﷺ ، لم

---

(١) أخرج بنحوه مسلم ، رقم : (١٤٠١) عن أنس رضي الله عنه .

يمنعه شيء يوماً من قول الحقّ ، حتى أغضب أعزَّ خُلاَّنه وأصحابه ؛

عالمٌ مسَحَ أكثر بلاد العالَم في الدَّعوة والإرشاد إلى دين الله عزَّ وجلَّ ، لم تَهُزُّه أَعاصير الفتن ، ولم تحرِّكه الشدائد والنوائب ، بأن يلينَ أو يتوانى عن دعوته ، في نشر تعاليم الإسلام ، حتى توفَّاه الله على سجَّادة الدَّعوة والإرشاد ، وكرسيِّ الوعظ والنَّصيحة للمسلمين ؛ وصدق من قال : « يَمُوتُ الْمَرْءُ عَلَى مَا عاشَ عَلَيْهِ » .

ومات الشيخ على ما كان عليه ، من الدَّعوة ونشر العلم والحقيقة ، بين المسلمين بنفسه وماله .

□ ومن باب الاستئناس والتذكير أقول : قال تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الروم : ٤٧] .

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « مَنْ حَمَى عِرْضَ أَخِيهِ فِي الدُّنْيا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكاً يَوْمَ القِيامَةِ يَحْمِيه عَن النَّارِ »[1] .

وفي حديث : « مَا مِن امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ ، وَمَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ »[2] .

وفي رواية : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ مُسْلِمٍ بِكَلِمَةٍ وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ ، يَشِينُهُ بِهَا فِي الدُّنْيا ، كَانَ حَقاً عَلَى اللهِ أَنْ يُذِيبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ ، حَتَّى يَأْتِيَ بِنَفَادِ مَا قَالَ »[3] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا [الترغيب والترهيب : ٣/٥١٨] .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند : (٤/ ٣٠) وأبو داود ، رقم : (٤٨٨٤) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير [مجمع الزوائد : ٤/٢٠١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ اللهَ تَعالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِياً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ »[1] .

☐ وذكر العلماء في كتبهم : أنَّ الغِيبَةَ هي أن تذكر الإنسان بما لا يرضى استماعه وإن كان فيه ، قال رسول الله ﷺ : « أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟ قالوا : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قال : ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِما يَكْرَهُ »[2] .

☐ وذكر ابن حجر الهيثمي : أنه سئل الغزالي في فتاويه عن غِيبة الكافر ؟ فقال : هي في حقِّ المسلم محذورة لثلاث علل :

١ ـ الإيذاء ، ٢ ـ وتنقيصُ خلق الله ، فإنَّ الله خالقٌ لأفعال العباد ، ٣ ـ وتضييع الوقت بما لا يعنى .

قال : الأولى : تقتضي التحريم . والثانية : الكراهة . والثالثة : خلاف الأولى .

وأمّا الذِّمِّيُّ فكالمسلم فيما يرجع إلى المنع من الإيذاء ، لأنَّ الشرع عصم عرضه ودمه وماله ، فقد قال ابن حبان في صحيحه : إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال :

« مَنْ سَمَّعَ يَهُودِياً أَوْ نَصْرانِياً دَخَلَ النَّارَ »[3] .

ومعنى سَمَّعُهُ : أَسمعه ما يؤذيه .

ولا كلامٌ بعد هذا لظهور دلالته على الحرمة[4] .

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (٦١٣٧) .

(٢) أخرجه مسلم ، رقم : (٢٥٨٩) وأبو داود ، رقم : (٤٨٧٤) والترمذي ، رقم : (١٩٣٥) .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ، رقم : (٤٨٨٠) عن أبي موسى رضي الله عنه .

(٤) في كتاب الزواجر : (١٨/٢) .

هذا حكم الغِيبة مع الكافر والذِّمِّي ، فما حكمها على مسلم ؛ بل عالم ؟ فتأمل عزيزي القارىء رعاك الله !

وقد يتوهَّم من حدِّهم السّابق للغِيبة أنها تختص باللسان ، وليس كذلك ، لأنَّ عِلَّة تحريمها الإيذاء بتفهيم الغير نقصان المغتاب ، وهذا موجود حيث أفهمتَ الغَيْرَ ما يكرهه المغتاب ، ولو بالتعريض ، أو الفعل ، أو الإشارة ، أو الإيماء ، أو الغَمْز ، أو الرمز ، أو الكتابة ، أو غير ذلك .

وكذا منها قولك : فَعلَ كذا بعض من مَرَّ بنا اليوم ، إذا فهم منه المخاطَبُ معيَّناً ، ولو بقرينة خفيَّة .

وصية الشيخ مُلاَّ رمضان لولده :

والأمر الذي حيَّرني وجعلني أستغرب كثيراً من الدكتور ـ حفظه الله ـ أن أستفهم هل ترى سهى أو نسي أو حاشاه ـ تجاهل ـ أو كان في النفس حاجة لا أدري ؟ إنه تسرع في نقل رأي والده ـ رحمة الله عليه ـ من قبل أن يراجع كتاب المكتوبات للإمام الربّاني ، وقد جعل والده نفسه هذا الإمام حجة له على شيخ الجزيرة ، كما ذكره هو أوّلًا ، وعدم العمل بوصية والده ـ رحمة الله تعالى عليه ـ ثانياً . . وهو يحثه على أنْ يُؤَوِّل كلام وأقوال العارفين ومشايخ التصوُّف ، المتحلِّين بالورع والتقى وخشية الله عزَّ وجلَّ ، والواقفين عند حدود الدِّين ، ويحسن الظن بهؤلاء النَّاس . وقد ذكر الدكتور نفسه هذه الوصية في كتابه « هذا والدي » في الصفحة : (١١١) ولتمام الفائدة هذا نصُّ الوصية بحروفها :

« . . وبالجملة فقد كان ـ رحمه الله ـ يُجلُّ هؤلاء العلماء ، ويعدُّهم أئمة في الإرشاد وإصلاح النفوس ، وكان يحذِّرني بين الحين والآخر من

الخوض في شأنهم ، وإساءة الظنّ بهم ؛ ولقد أوصاني في الكتيّب الذي أودع فيه أثمن وصاياه ونصائحه التي خاطبني بها ، إذ كنتُ صغيراً جدّاً ، وكان قد أبلَّ من مرض نجا فيه من الموت : أن لا أسيء الظنَّ بأعلام التصوُّف هؤلاء ، وأنْ لا أحرِّك فمي بأي انتقاص لهم ، فإنَّ لحومهم مسمومة ـ على حَدِّ تعبيره ـ ولعلَّهم من كبار أولياء الله عزَّ وجلَّ ، ولا شكَّ أنَّ المنتقص لهم والمسيء إليهم يدخل عندئذ في طائلة قول الله عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي الصحيح :

« مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ »[1] .

وإنما يخرجك من إشكال شطحاتهم : أن تتذكر الاحتمالات الواردة والممكنة عقلاً ، فتنجو بذلك من حصرك لنفسك بدون موجب ، في زاوية واحدة هي زاوية التكفير والعياذ بالله !

ثم عليك بعد ذلك أن تبتعد عن تلك الشطحات ، ولا تقف عندها ، موقناً بأنها في ظاهر ما تدل عليه : كفر ، مستغنياً بذلك عن تكفير أشخاص عُرِفُوا بالصّلاح والتقوى ، ولا تعلم كيف آلو إلى الله ؟ » .

□ وليتَ الدكتور عمل بهذه الوصيّة وكفانا مؤونة القيل والقال ، ومن باب : « اذْكُروا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ »[2] « فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا »[3] .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة : ١٣٤]

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (٦١٣٧) .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والحاكم .

(٣) أخرجه البخاري [كشف الخفاء : ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦] .

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

ولَيْتَهُ أَوَّلَ للشيخ النقشبندي في الجزيرة ، وفرض احتمالات واردة وممكنة لأقواله ـ إن فرضنا أنه قال مثل ما سمع ـ كما يؤول كلمات أعظم مما سمع ما في الشريط مثل ـ سبحاني ـ وأنا الحق ـ وما في الجبة إلّا الله ـ وغير ذلك !

والأغرب من هذا كله ـ أيضاً ـ أنَّ الدكتور ذكر المناسبة والشريط والرابطة ، وصاحب الشريط والرابطة بعد وفاة والده ، وبعد وفاة الشيخ المذكور صاحب الرابطة والشريط أيضاً ، رحمة الله عليهما . . ربما كان والد الدكتور ـ رحمة الله عليه ـ لا يوافقه على ذلك ، لا أدري ؟! .

□ أرجو أن لا تؤاخذوني إن قلت : أكاد لا أصدق عينيَّ بما قرأت في كتاب « هذا والدي » للدكتور محمد سعيد البوطي ـ حفظه الله ـ في موضوع « الرابطة » التي تركت التعليق عليها ، والرد عليه لأهلها وأربابها ، فإنَّ للبيت ربٌّ يحميه ، وفي موضوع الشريط وصوت الشيخ النقشبندي في الجزيرة .

لأنني حسب ما أعرفه كان جدير بشخص مثله حين يسمع كلاماً مثل هذا ، أو شريطاً مثل ذاك : أن يضعه في مخابر الشريعة المحمدية ، وتحت مجاهر الأخلاق والآداب الإسلامية ، وكيفية معالجتهم لمسائل مثل مسألتنا ، كل ذلك إن فرضنا جدلاً أن ثمَّة كلاماً مثل هذا في شريط مثل ذاك .

نعم ، كانوا يحسنون الظنَّ في عالم مثل ذلك العالم المعروف بورعه وتقواه ، لأنه قد ورد عنه ﷺ : « خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ »[1] .

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ، رقم : (١٢٣٤) .

فينبغي لنا أن نُحسنَ الظن بالله ، ونحسنَ الظن بعباد الله . وكانوا يسترون الحال لأنه : « مَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرهُ الله »[1] في يوم ﴿ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ ﴾ [الشعراء : ٨٨ ـ ٨٩] . وكانوا يُيسيرون الأمر ويسهلون الصعب ويرصُّون الصَّفَّ ويوحِّدون الكلمة ، لأنَّه قد جاء في القرآن العظيم : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وفي الحديث الشريف : « .. كُونُوا عِبادَ الله إِخْواناً »[2] ونحن في يوم أحوج ما تكون إلى هذه الأخيرة أمام عدُوٍّ لا يسود إلّا بالتفرقة ، وتشتيت أفكارنا وقلوبنا ، وتمزيق صفوفنا وبلادنا !

وكانوا يلتمسون له عذراً ؛ بل أعذاراً ، فهل التمسنا لشيخنا العالم الجليل صاحب الكلام في الشريط المذكور عذراً واحداً ، حتى نحكم عليه بما حكمنا ؟

ومع كلٍّ ما ذكرنا هل يخفى على أمثال الدكتور ما يحصل لأشرطة التصوير والصَّوت ، من حذف وتغيير ، وتقليد وإضافات ، وغير ذلك ممّا يمنع الحاكم المنصف شرعاً أن يقبل ، أو يَرُدَّ قولًا من غير الاعتماد على أهل التجربة والخبرة ؟

هل الدكتور رأى الشيخ واستجوبه ، فرأى الشيخ يقرُّ ويصر له على كلمة واحدة مما نقله الدكتور في كتابه المذكور ؟!

فحَكَمَ عليه بالدَّجل والتزييف ، وذكره بما يسوؤه ويسوء عباد الله

---

(١) أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي [جامع الأصول : ٦/ ٥٦٢] .

(٢) أخرجه البخاري ، رقم : (٥٧١٨) ومسلم ، رقم : (٢٥٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الصّالحين والمخلصين، وتتزعزع لبنة؛ بل لبنات في بناء المجتمع المسلم.

ألم يَرَ الدكتور موقفاً حرجاً للشيخ النقشبندي في الجزيرة حين ما طُلِبَ منه أن يحكم على جماعة بمجرد النقل والاعتماد على أقوال الآخرين بالكفر أو الفسق مثلاً، فأبى الشيخ إلَّا أن يستجوب هذه الجماعة، أو هذا الفرد من هذه الجماعة، وبعدها يحكم بما أنزل الله تعالى فيهم، فإذا كان شيخ هذا حاله في موقف لا يصمد فيه إلَّا الكُمَّل من الرجال، فهل يليق به أن يقول: محبة الشيخ أهم وأولى من محبة الله عز وجل؟! معاذ الله، لا نقول إلّا ما قالت عائشة رضي الله عنها في كربها:

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٨].

وأحبّ أن أقرّب المسألة إلى الأذهان بضرب مثل في نَحْوِيٍّ بارع ولغوي متكلم، إذا نُقِلَ عنه أنه قال في إعراب كلمة «زيد» من جملة «ضُرِبَ زيدٌ» مرفوع لأنه مفعول من غير ذكر شيء آخر، والمفعول المعروف فيه؛ بل الصحيح فيه أنه منصوب.

فهل يُصدق الناقلَ أحدٌ؟! لعمرك لا أتصور أنَّ مجرِّباً يصدقه؛ بل الكل يصبح ألْسِنَةً ويقولون: إنه لم يقل كما نقلت، وإنما قال: إن كلمة زيد من الجملة المذكورة «مرفوع، لأنه مفعول لم يُسَمَّ فاعله».

وهكذا لا يتصور من مثل شيخ الجزيرة النقشبندي، المشهور والمعروف باستقامته على الشريعة: أن يتفوه بكلمة مما ذكر أو نقل عنه في كتاب «هذا والدي» ولكن لي الحق أن أقول: إن الشيخ ـ رحمة الله عليه ـ قد قال: إنَّ محبة الشيخ تعتبر وسيلة للوصول إلى محبَّة الله عزَّ وجلَّ، من باب قول النَّبيِّ ﷺ: «خِيارُكُمْ الَّذينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه، رقم: (٤١١٩).

ولعل الوقت قد حان أن أقول : إنَّ عزاي في مصيبتي وفَرَجي في كُرْبتي : أن قام قلمي من سباته العميق ، ورقدته الطويلة ، ووقف على رجله أخيراً ـ والحمد لله ـ فجعل يكتب ، ويجمع وينقل عن كبار العلماء والعارفين ، الشاربين من مناهل المعرفة واليقين ، وأساطين الفهم ، وملوك التربية : كلمات قدسية ، ونفحات ربّانية ، ونصائح دينية ، وإشارات صوفية ، وأحكام شرعية ، في وسيلة من أهمِّ الوسائل في الوصول إلى معرفة الله عزَّ وجلَّ ، والتقرب إليه ، والتمكن من مقام الإحسان ، وهو : « أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَراهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ »[1] .

ويدافع حسب استطاعته المتواضعة ، وخبرته الضعيفة ، وبضاعته القليلة ، عن عالم جليل معروف بالورع والتُّقى .

وأرجو المعذرة من الزلّات والعثرات ، فجلَّ من لا يخطىء :

« كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطّائِينَ التَّوّابُونَ »[2] .

وأستغفر الله العظيم لي ولوالديَّ وللمؤمنين والمؤمنات ، يوم يقوم الحساب .

□ أعود فأقول : إني تركت التعليق على « الرابطة » والرد على من ينكرها لأهلها وأربابها ، لأنني لستُ من فرسان مثل هذه الميادين ولا باري مثل هذه الأقواس ، وأخشى أن يقول قائلكم :

يَا بارِيَ الْقَوْسَ يَا مَنْ لَسْتَ تُحْسِنُهُ
لَا تُفْسِدِ الْقَوْسَ أَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيها

---

(1) أخرجه البخاري ، رقم : (٥٠) ومسلم ، رقم : (٨) .
(2) أخرجه الترمذي ، رقم : (٢٥٠١) وابن ماجه ، رقم : (٤٢٥١) .

ولكن ما استطعت أن أصنعه أني نقلت كلمات هؤلاء العلماء بكل أمانة والحمد لله مع حذف بعض الزيادات المملّة ، والأقوال المكرَّرة ، والتعليق أو الإشارة إلى بعض الأمور المبهمة ، وإنّ أول كلمة نقلتها للعالم الكبير (أحمد السر هندي) المعروف بالإمام الربّاني المجدد للألف الثاني ، هذا الشيخ جعله الشيخ (مُلاَّ رمضان) رحمه الله حُجَّةً وحَكَماً في الفصل بين شيخ الجزيرة والدكتور ولده ، وقد نقلت الرسالة التي أشار إليها رحمة الله عليه ، والرسالة التي قبلها – أيضاً- في بيان حكم الرابطة عند السَّادة النقشبندية ، فإلى رسالة الإمام الربَّاني ، ومن بعده إلى غيره وغيره حتى ينتهي بنا المطاف فنختم الكلام بمقالة لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمة الله عليه، حتى يتبيَّن لك الحق إن شاء الله تعالى ، من أنّ ((الرابطة)) أمرٌ أقرَّه وثبَّته كبار العلماء العاملين في كتبهم ورسائلهم واعتبروها من الوسائل المهمَّة في توصيل السَّالك إلى جناب الحقِّ سبحانه وتعالى ، والتمسُّك بكتاب الله ، وسنَّة رسول الله ﷺ .

و قبل أن أنقل لكم كما وعدتكم ما جاء للعلماء والعارفين من البيان والاستدلال على جواز الرابطة النقشبندية لا بد لنا من وقفة قصيرة على سنة معروفة عند من سلف من الباحثين حين الاستدلال والبحث عن أمر ما فلهذا أقول وبالله التوفيق

أولاً تعريف النقشبندية :

النقشبندية من كلمة نقشبند وهي كلمة مركبة من كلمتين نقش – وبند (نقشَ الشيء نقشاً بحث عنه واستخرجه، ونقَشَ مربضَ الغنم نقّاه مما يؤذي،

ونقش لوَّنه بألوان وزيَّنهُ، ونقش الرحى نقرها لتخشن، والنقش: الأثر، يقال ذهب الرماد حتى ما نرى نقشاً [1]

(ونقشَ نقشاً- الشيء: لوَّنه بلونين أو أكثر وزينّه فكأنّه نفى عنه معايبَه وحسنَّه .. ونقشَ جمعُها نقُوش : الأثر في الأرض ما نُقشَ على الشيء من صور وألوان)[2]

(وبند : كلمة في لغات الهندو الأوربية تلحق أواخر الكلمات تكسبها معنى اسم الفاعلية أو الصفة فعلى هذا كلمة نقشبند المركبة من نقش وبند معناها أثر وترك أثراً أو ربط) وتسمّى نقشبندية أي مَنسوبة إلى نقشبند ومعناه ربط النقش وهو صورة الكمال الحقيقي بقلب المريد ...فكان يَسرٌّ في الذكر انفراداً وجمعاً فيصير من ذكرهم كذلك في قلب المريد تأثيرٌ بليغ، فكان يقال لذلك التأثير نقش وذلك الذكر بند أي ربط، والنقش هو صورة الطابع إذا طُبعَ به على شمع ونحوه وربطه بقاؤه من غير محو قلت ويؤيد ذلك ما ذكره صاحب مفتاح المعية من أن صفات الله تعالى هي المتوجّهة على خلقه آدم وبنيه بتوجه من الذات العليّة حيث لا كيف ولا أين فظهر آدم عليه السلام وظهر بنوه على صورة مخصوصة مسماة بأسماء المتوجه تعالى موصوفة بأوصافه لها ذاتٌ يصح نسبة ذلك إليها ولها أفعال، كما له أفعال، ولها أحكام منها على غيرها كما له أحكام كذلك فكذلك نقش الذات والصفات والأسماء والأفعال والأحكام ظهر بظهور آدم وبنيه، ولكن من بنيه من محا بعض ذلك بغلبة الحيوانية عليه وضعف الإنسانية الكاملة ومنهم من كمل نقشُه فيسمى

---

[1] المعجم الوسيط لمجموعة من المؤلفين ج٢ص٩٤٦- الطبعة الثانية د-ت.

[2] المنجد في اللغة – الطبعة الحادية والعشرون ص ٨٣١د-ت.

نقشبند أي لازمُ النقش ومربوط النقش وهذه الكلمة صالحة لغير ذلك اهـ)[1].

فإن الغاية من الطريقة النقشبندية هي تحقيق معنى قوله تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾[2]

فلهم وسائلهم وطرقهم الموافقة للكتاب والسنة يحصّلون لمريديهم هذه المعاني السامية ويوصلون الطالب إلى هذه المقامات العالية بهممهم العالية ونياتهم الحسنة فغاية الطريقة النقشبندية كما ذكرنا هي تحصيل الإخلاص لله تعالى في الأعمال كلها وعندهم لا يحصل هذا إلا بالمثابرة على الأعمال الصالحة بمرافقة مرشد متمكّن فانٍ في الله تعالى .

ويقول أحد أساطين هذه الطريقة الشيخ فتح الله الورقانسي [3] : (اعلم أن المقصود من وضع الطريقة العلية النقشبندية قدس الله أسرار ساداتها الكرام حصول المحبة الذاتية لتحصيل الإخلاص في العمل حتى يكون جميع الأعمال بل الحركات والسكنات والأقوال بل المزاح لله تعالى من غير ملاحظة منفعة دنيوية أو أخروية بل من غير ملاحظة نحو ترقٍ أو وصول . وهذا المقصد العالي لا يحصل إلا بمتابعة الشريعة المصطفوية عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريّاته وأصهاره وأنصاره أفضل الصلاة والسلام والتحية من غير

---

[1] الحدائق الوردية في حقائق النقشبندية ص٨– عبد المجيد بن محمد الخاني – ١٣٠٦هـ–د– ط .

[2] سورة الكهف – الآية (١١٠)

[3] هو من شيوخ الطريقة النقشبندية المعروفين في ولاية بدليس في تركيا وله باع طويل في علوم الشريعة والطريقة توفي ودفن في بدليس ١٢١٤هـ وفيه يزار ويتبرك به .(كتاب بركة الكلمات في مناقب بعض السادات – الشيخ عصام الورقانسي – مخطوط – ص٦٦

شائبة نحو بدعة أو رخصة، وطرد الغفلة بالكلية حتى يكون في نومه ويقظته، وخلوته وجلوته، وملاقاة الأحباب والأغيار، والغضب والسكينة والجـــوع والشبع، وكل أسبابٍ تورِّث التفرقة جامع القلب بحيث لا تحركه رياح الفتن والتفرقات بل يكون جمعه في التفرقة أكثر وعند المصيبة أشد فمــن جهــة وجوب المتابعة يجب عليه الاجتناب من كل محرم ومكروه وخــلاف الأولى أيضاً والامتثال بكل واجب وسنة بقدر الإمكانِ في الحال والمستقبل والتوبة بشروطها مع الاستغفار فيما مضى . ومن حيث الوجوب طرد الغفلة يجب عليه توقيف القلب إما على الرابطة الآتي تفصيلها وإما على الذكر المتنــوع على النوعين الآتيين . وإما عليهما جميعاً بحيث يحصل له ملكة الحضور بغاية لو أراد طرده مما أمكنه من غاية تمكنه، فلأجل هذا المذكور وضعوا آداباً لمن أراد الدخول في هذه السلسلة العلية والتمسُّك بأذيال ساداتها الكرام)[1]

فإن فاتحة آداب هذه الطريقة العلية هي توبة المريد ورجوعه إلى الله عز وجل ولقد وضعوا لذلك آداباً : منها الغُسْل وصلاة ركعتين والتوبة والاســتغفار بعدها وقراءة عدة مرات سورة الفاتحة ورابطة الشيخ المُرشــد والتفكـــر في الموت كل ذلك قبل نومه وبعد انتسابه إلى الطريقة [2]

---

[1] الكلمات القدسية للسادات النقشبندية – مجموعة رسائل طبعت على نفقة لجنة من العماء النقشبنديين بارك الله فيهم سنة ١٤٠٠ هـــ ١٩٧٩م في تركيا – ص ٢٨٠

[2] انظر إلى المرجع نفسه ص ٢٨١ .

وأما شروط الطريقة وأركانها وآدابها العامة فقد ذكرها جمٌّ كثير منهم وننقل شيئاً مما ذكره الشيخ محمد العربكندي [1] خليفة الشيخ محمد معصوم الخزنوي[2] في رسالته في تلك المجموعة : ((أما الشرائط فثلاثة ، وأدنى مراتب الإخلاص أن يعتقد المريد أن الدنيا لو كانت ممتلئة من الأقطاب والأغواث[3] لم يتيسّر له الفتح والوصول إلا على يد شيخه .. وأدنى مراتب المحبة أن يكون شيخه أحب إليه من ماله وولده بل ومن نفسه ... وأدنى مراتب التسليم أن يكون عند شيخه كالميت بين يدي الغاسل ، فانه يجب على الطالب التأنّي في اتخاذ الشيخ ، وبعدما دخل في قيد إرادة شيخ يُحرَّم عليه الميل إلى غيره فان مال قلبه إلى غير شيخه حُرِم بركاته ، وان يترك شيئاً من مأموراته فان الشيخ داخلٌ في أولي الأمر في قوله تعالى ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ

---

[1] هو عالم معاصر في الطريقة النقشبندية من خلفاء الشيخ محمد معصوم الخزنوي من شرقي تركيا ديار بكر صاحب مدرسة علمية معروفة تخرج منها علماء أفاضل (كتاب الشيخ أحمد الخزنوي النقشبندي ص٣٥ عبد القادر الخزنوي – طبعة اولى سنة ١٩٩٩) .

[2] (١٩١٥–١٩٨٥م) هو ابن الشيخ أحمد الخزنوي ومن كبار خلفاءه تخرج من مدرسته المعروفة وقد اشتهر بشجاعة ومقاومته للمنكرات في منطقته – المرجع نفسه ص ٣٣ .

[3] القطب : وقد يسمى : غوثا باعتبارالتجاء الملهوف إليه : وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضوع نظر الله في كل زمان ، أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه . وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد ، بيده قسطاس الفيض الأعم ، وزنه يتبع علمه ، وعلمه يتبع علم الحق ، وعلم الحق يتبع الماهيات الغير مجعولة ، فهو يفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل ، وهو على قلب إسرافيل من حيث حصته الملكية الحاملة مادة الحياة والإحساس ، لا من حيث إنسانيته . وحكم جبريل فيه كحكم النفس الناطقة في المنشأة الإنسانية ، وحكم ميكائيل فيه كحكم القوة الجاذبة فيها ، وحكم عزرائيل فيه كحكم القوة الدافعة منها . (علي بن محمد علي الجرجاني ((٧٤٠–٨١٦هـ)) كتاب التعريفات ص٢٢٧– طبعة دار الكتاب العربي بيروت – طبعة اولى – ١٩٨٥م) .

منكُم﴾(١) ، أو يخترع ورداً أو يزيد أو ينقص من قبل رأيه ، فمن وجد هذه الشرائط في نفسه فليعلم أنه معدودٌ من المريدين ومنظور للسادات الكرام .

وأما الأركان فأربعة أشياء منها أقل الأوراد وهو خمسة آلاف ، والرابطة فيما بين الغُرُوبَيْن وإحياء ما بين الطلوعين(٢) وقيام الليل فيما عدا أوقات الرخصة وهو وقت قصر الليالي ، وعد بعضهم الختمة منها وليست منها عندنا .

وأما الآداب فثلاثة أقسام : بين المريد وبين الله ، وبينه وبين شيخه ، وبينه وبين الأخوان))(٣) ، وليس البحث بصدد تفاصيل ما ذكر فعلى طلابها مراجعتها في مواضعها .

ثانياً- تعريف الرابطة

الرابطة في اللغة كما جاءت في المعاجم هي : ((الرابطة: العلاقة والوصلة بين شيئين))(٤) ، وهي كما تبدو من تعريفها اللغوي تقوية العلاقة والوصلة بين الشيخ والمريد ابتداءً ، وفي النهاية وسيلة ناجحة لتقوية العلاقة بين الله عز وجل وبين المريد .

وفي اصطلاحهم : عبارة عن الفناء في الشيخ المرشد المسبب للفناء في الله تعالى كما جاء عنهم : ((من الأعمال الرائجة في الطريقة النقشبندية الرابطة ، وهي عبارة عن ربط القلب بالشيخ الكامل المكمّل ، على وجه المحبة ، والإنسان لا يخلو من رابطة ما ، فمن مرابط لماله ، ومن مرابط لحرفته ، ومن

---

(١) النساء – الآية (٥٩) .

(٢) الغروبان : غروب الشمس أو غروب الشفق الأحمر ، والطلوعان : طلوع الفجر وطلوع الشمس .

(٣) الكلمات القدسية للسادات النقشبندية– مجموعة رسائل طبعت على نفقة لجنة من العلماء النقشبنديين بارك الله فيهم سنة ١٩٧٩م في تركيا – ص٢٤٩.

(٤) المعجم الوسيط – مجموعة من المؤلفين – دار إحياء التراث العربي – الطبعة الثانية – جـ١ ص٣٢٣ .

مرابط للنساء ، ومن مرابط لأصحابه وأخدانه إلى غير ذلك .. فالرابطـــة في اصطلاح الصوفية ليست إلا عبارة عن نفي هذه الروابط عن القلب ، وصرفه عنها ، وجمعه على ربطه بالشيخ وتخيل كأنه معه ، ومن المقرّر أن إعمـــال الفكر في أمرٍ من الأمور وربطه به على سبيل المحبة ، لاسيما إذا استولت هذه الخطرة على القلب ، يعمل في نفس الإنسان عمل مزاولة ذلـــك الأمـــر ، فإعماله في الأمور المحمودة محمود ، وفي الأمور المذمومة مذموم/ ومن ثَمَّ مال بعض الفقهاء : فحَرَّم مجامعة امرأته متفكراً في محاسن أجنبية ، وقال بعضهم: كل ما يحرم النظر إليه يحرم التفكر فيه ... وذلك بحسب الخيـــال ، وهـــذه الحالة تسمى عند الصوفية بالفناء في الرابطة..))[1] .

و((أن الرابطة عبارة عن ربط القلب بالشيخ الكامـــل الواصـــل إلى مقـــام المشاهدة الإلهية ، المتصرف بقوة الولاية ، المشهود بالكامـــل مـــن كُمَّـــلِ الرجال، وحفظ صورته بالخيال))[2] .

و((أن الرابطة عبارة عن تعلق القلب بشيء لشيء على الوجه المحبة ، وهـــذا التعلق تارةً يكون محموداً ، وتارةً يكون مذموماً ، وتارةً يكون مباحاً))[3] .

وقد اتضح من خلال هذه التعاريف أن الرابطة عبارة عن الكينونة المعنوية مع الشيخ المرشد أو بعبارةٍ أخرى هي عملية لنقل المريد أو الوصول به إلى مقام الإحسان وهو الشعور بمراقبة الله في السر والعلن وان الله يعلم خائنة الأعيُن ما تخفيه الصدور .

---

[1] بغية الواجد في مكتوبات مولانا خالد ص(١٠-١١) .

[2] السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية – عبد المجيد الخاني ص٢٢- د.ط.ت .

[3] هامش مكتوبات الإمام الرباني ص٢١٨ د.ت.ط.

مَنْ يبحث في كتب هذه الطائفة يطّلع بأن لديهم الأدلّة الكثيرة الدالّة على جواز الرابطة بل على استحبابها ، فهم يستأنسون ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والقواعد الأصولية والمنطقية ويعتبروها من الوسائل التربوية والعلمية المحمودة مثل : كتابة السنّة وتأليف الكتب وإنشاء المدارس بأنواعها المعروفة والمختلفة وغيرهم وكل هذه الأمور لم تكن موجودة في عصر الوحي وبدء الرسالة .

ومن الآيات قوله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وابتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾[١]

وقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينْ﴾ [٢]

وقوله تعالى : ﴿ أُلَئِكَ الَّذِين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهِمُ أَقْرَبُ﴾ [٣]

وقد اعتبروا الرابطة وسيلة إلى التآلف بين قلب المريد والشيخ المرشد وهي من النعم التي منَّ الله بها على عباده وقد حث الشارع عليها وليتها تحصل بين جميع أفراد المجتمع الإسلامي ..

قال تعالى : ﴿ وَأَلفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَو أنفقت مَا فِي الأَرضِ جَمِيعاً مَا أَلفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكنَّ الله أَلف بَيْنَهمْ ﴾

وهي وسيلة من وسائل تقوية أواصر المحبة بين الأخلاء الصالحين قال ﷺ (وجبت محبتي للمتحابين فيّ) [٤]

---

[1] سورة المائدة (٣٥)

[2] سورة التوبة (١١٩)

[3] سورة الأنفال (٦٢)

[4] أخرجه الإمام مالك في الموطأ (كتاب الشعر- باب ما جاء في المتحابين في الله) عن معاذ بن جبل ﷺ ج٢ ص ٧٢٦

وقوله ﷺ (وهل الدين إلا الحب والبغض)[1] وهي وسيلة إلى ذكر الله عز وجل قوله ﷺ (ألا أنبكم بخياركم قالوا بلى يارسول الله قال : خياركم الذين إذا رؤوا ذكرالله عز وجل)[2] لذا قال العارفون (كن مع الله فإن لم تستطع فكن مع من كان مع الله)[3]

ثالثاً – أنواع الرابطة

بعد مراجعة المصادر المتعلقة بموضوع البحث تبين أنّ للرابطة أنواعاً وكيفيات عديدة ومع جهات متعددة فمن رابطة المصطفى ﷺ وكبار الأولياء والصالحين إلى رابطة الشيخ المرشد المباشر ولكل كيفية خاصة بها فهناك مثلاً:

١- الرابط الصورية : يكلف بها المريد غالباً بين صلاة المغرب والعشاء في غير الصيام وفي الصيام بعد صلاة الظهر يجلس فيها عكس توركه في الصلاة مستقبلاً القبلة مغمضاً عينيه مستغفراً الله ٢٥ مرة متصوّراً شيخه أمامه على هيئة حسنة يخرج من جبهته نور نحو قلبه أولاً ثم شيئاً فشيئاً يتوسع هذا النور حتى يغمر جميع جسده ويبقى هكذا حسب استعداداه وحاله ثم يستغفر الله أيضاً ٢٥ مرة ويفتح عينيه[4]

[1] أخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل عمران) عن عائشة ﵂ ج٢ ص٩٩١

[2] اخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ((باب ما يوبه له)) عن اسماء بنت زيد ج٢ ص١٢٧٩ رقم ٤١١٩

[3] كتاب تنوير القلوب ص٥٤٣ دار الايمان ١٤١٣هـ ١٩٩٣م

[4] انظر مكتوبات الشيخ التاخي ص (٤٥-٤٧) المكتوب الثالث والعشرون

٢- الرابطة الخيالية : (وهي أن يلاحظ الأستاذ – شيخه- وكأنه معه دائماً حتى في الخلاء ، وقضاء الحاجة والأكل والشرب والتكلم فيما بين الأحباب وأثناء الدرس وقبل النوم وبعده) [١]

٣- الرابطة الحضورية : وهي أثناء حضور المريد شيخه المربي (وهي مقابلة قلب المريد بقلب شيخه وحفظ صورته ... وملاحظة أن قلب الشيخ كالميزاب يتنزل الفيض من بحره المحيط إلى قلب المريد المرابط واستمداد البركة منه)[٢]

[1] انظر المرجع نفسه (٤٥-٤٧)

[2] تنوير القلوب للعلامة الشيخ محمد أمين الكردي ص (٥٣٤) - دار الإيمان ١٩٩٣م -بلا- ط

الفصل الأول

□ يقول الإمام الربّاني والمجدد للألف الثاني الشيخ « أحمد الفاروقي السرهندي » في المكتوب السابع والثمانين والمئة ، يبيِّن فيه بأنَّ « الرابطة » عند الطريقة النقشبندية ـ قدس الله أسرار سادتها ـ من أقوى وأنفع الطرق والوسائل في تسليك المريد ، والسير به إلى جَنَاب الحقِّ سبحانه وتعالى ، حتى كان بعض السادة يقتصر على الرابطة دون غيرها من الرياضات والمجاهدات النفسية في تربية مريديهم وتزكية نفوسهم ، هذا ما نصه :

« اعلم أنَّ حصول رابطة الشيخ للمريد بلا تكلف وتعمل : علامة المناسبة التامة بين المرشد والمريد ، التي هي سبب الإفادة والاستفادة ، ولا طريق أقرب من طريق الرابطة أصلاً ، فياسعادة من استسعد بهذه الدولة .

أورد حضرة الخواجة أحرار قُدِّس سِرُّه في الفقرات أن ظل الدليل [أي : رابطة الشيخ] أولى من ذكر الحق سبحانه ، باعتبار النفع ، يعني : أن ظل الدليل أولى للمريد من اشتغاله بالذكر ، فإنه لم تحصل بعد للمريد مناسبة كاملة بالمذكور ، جلّ وعلا ، حتى ينتفع من طريق الذكر انتفاعاً تاماً ، والسّلام أوّلاً وآخراً »[1] .

ويقول الإمام الربّاني ـ أيضاً ـ في المكتوب التسعين والمئة ، يبيِّن فيه

---

(١) مكتوبات الإمام الربّاني : (١/ ١٦٠) .

كيفية الذكر عند السادة النقشبندية ـ قَدَّس الله أسرارهم ـ لأحد مريديه ، ويحث مريده بصرف التوجه عن جميع الجهات ، والإقبال بالكلية إلى جانب أكابر الطريقة العلية ، ويشير إليه إذا ظهر له أثناء ذكره صورة شيخه ، يحتفظ بها في قلبه ، وهذا المكتوب الذي قد أشار إليه واحتج به الدكتور ـ حفظه الله ـ عند كلامه عن الرابطة ، ورأي والده فيها ، رحمة الله عليه :

« اعلم وَتَنَبَّه أنَّ سعادتك ؛ بل سعادة جميع بني آدم وفلاحهم وخلاصهم ، كل ذلك في ذكر مولاهم جلَّ سلطانه ، فينبغي استغراق جميع الأوقات بالذكر الإلهيِّ جلَّ شأنه بقدر الإمكان ، وأن لا يجوز الغفلة لحظة واحدة ـ ولله سبحانه الحمد والمِنَّة ـ إنَّ دوام الذكر يتيسر في طريقة خواجكان ـ قدس الله أسرارهم ـ في الابتداء ، ويحصل ذلك فيها على طريق اندراج النهاية في البداية ، فاختيار هذه الطريقة كان للطالب أولى وأنسب ؛ بل يكون واجباً عليهم ولازماً ، فعليك إذاً صرف التوجه عن جميع الجهات ، والإقبال بالكلية على جانب أكابر هذه الطريقة العليّة ، وطلب الهمَّة من بواطنهم الشريفة ، ولا بُدَّ من الذكر في الابتداء ، فينبغي أن تتوجه إلى القلب الصنوبري الشكل ، فإنّ تلك المضغة كالحُجْرة للقلب الحقيقي ، وأن تُجْرِيَ الاسم المبارك « الله » على هذا القلب ، ولا تحرّك عضواً من أعضائك في هذا الوقت بالقصد ، واقعد متوجهاً إلى القلب بالكليّة ، ولا تخيَّل صورة القلب بالقوة المتخيلة أصلاً ، ولا تلتفت إليها قطعاً ، فإنَّ المقصود : التوجه إلى القلب لا تصوُّر صورته ، وينبغي أن تلاحظ معنى اللفظ المبارك « الله » ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] . وأن لا تضم إليها شيئاً من ملاحظة الصِّفات حتى الحاضرية والناظرية ، لئلا تنزل من ذروة حضرة الذات إلى

حضيض الصفات ، فتقع منها إلى شهود الوحدة في الكثرة ، وتطمئن بشهود المثالي من التعلق بمن تنزّه عن المثالي والتوجه إليه ، فإنَّ كلَّ ما يظهر في مرآة المثالي لا يكون مصداقاً ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

وكل ما يشاهد في الكثرة لا يكون واحد حقيقاً البتة ينبغي للعاقل أن يطلب المنزه عن المثال فيما وراء المثالي ، وأن يلتمس البسيط الحقيقي في خارج حيطة الكثرة .

فإن ظهرت صورةُ المرشد وقت الذكر من غير تكلف ينبغي أن تذهب بها إلى القلب وأن تشتغل بالذكر حافظاً لها في القلب ، أتدري من المرشد ؟ المرشد من تستفيد منه طريق الوصول إلى جناب قُدُسِ الحقِّ جلَّ سلطانه ، وتجد منه مدداً وإعانة في هذا الطريق ، ومجرد لُبْسِ الكُلاه والخِرقة ، وأخذ الشجرة وغيرها مما صار عرفاً ورسماً بين الناس ، كلها خارجة عن حقيقة المرشدية والمريدية ، وداخلة في رسوم العادات ، إلّا أن الخرقة إن حصلت من الشيخ الكامل المكمل وعاملتَ بها بالاعتقاد والإخلاص فاحتمال حصول الثمرات والنتائج قويٌّ في هذه الصورة .

واعلم أنَّ المنامات والواقعات لا اعتماد عليها ولا اعتبار لها ، فإنَّ الإنسان لا يكون سلطاناً أو قطبَ الوقت في الحقيقة ، بسبب رؤية نفسه ، كذلك في المنام ، فإن كان في الواقع سلطاناً أو قطبَ الوقت فمُسَلَّم ، وكذلك كل ما ظهر من الأحوال والمواجيد في الصحو والإفاقة ، ففيه مجال للاعتماد عليه ، وإلّا فلا .

واعلم أنَّ نفع الذِّكر وترتُّب الأثر عليه مربوط بإتيان أحكام الشريعة ، فينبغي حسن الاحتياط في أداء الفرائض والسُّنَن ، واجتناب المحرَّم

والمشتبه ، والرجوع إلى العلماء في القليل والكثير ، والعمل بمقتضى فتواهم ، والسلام »[١] .

○ وبعد نقلِ مكتوب الإمام الربّاني في بيان « الرابطة » وبيان كيفية الذكر عند السادة النقشبندية ، ظهر لنا بأن « الرابطة » من أهمِّ الوسائل لدى السّادة النقشبنديين ، في تسليك مريديهم إلى محبة الله ومعرفته ، فلهذا كان الجدير بالإشارة هنا أن ننبه القارىء العزيز بأنَ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ـ حفظه الله ـ قد ذكر أنَّ والده ـ رحمة الله عليه ـ قد جعل من هذا المكتوب وهذا الإمام دليلاً يدعم به حكمه في نفيه واستنكاره للرابطة عند السّادة النقشبندية ، على مخالِفِهِ شيخ الجزيرة النقشبندي قدس سره ، الذي اشتكاه إلى والده ـ رحمة الله عليه ـ حينما أنكر الدكتور « الرابطة » في أحد دروسه ، ظاناً من الشيخ أنَّ والد الدكتور يوافقه ، فبعدما عرض شيخ الجزيرة تفصيل دعوته وشكايته ، قال والد الدكتور ـ رحمة الله عليه ـ على حدِّ قول الدكتور : « إنَّ هذا الذي قاله سعيد صحيح »[٢] .

وبعد شرح وتفصيل وبيان للرابطة عند أهل هذا الفن من والد الدكتور ، كما ينقله لنا الدكتور ـ حفظه الله ـ أوصى والدُه شيخَ الجزيرة بأن يراجع كتاب المكتوبات فيرى مصداقية حكمه ورأيه ؟!

وهنا قد قمت نيابة عن شيخ الجزيرة بتنفيذ وصية والد الدكتور ـ عليه من الله الرحمة والرضوان ـ فراجعت الكتاب المذكور ، فرأيتُ أنَّ الكتاب وصاحب الكتاب يقول : إنَّ الحقَّ معك يا شيخَ الجزيرة ، وليس مع

---

(١) مكتوبات الإمام الربّاني : (١/ ١٦١ ـ ١٦٢) .
(٢) هذا والدي ، ص : (١٠٢) .

الدكتور سعيد ! ولتمام الفائدة والنفع وإزالة الشك باليقين ، نقلت لك أيها القارىء العزيز مكتوب الإمام الربّاني حرفياً ، انظر الصفحة (٢٩) من هذا الكتاب .

وكما أنَّ المناسبة قد جعلت من الدكتور ـ حفظه الله ـ أن ينقل لنا قصَّةً قد غطّى وجهها غبار السنين ، جعلتني ـ أيضاً ـ أن أستيقظ إلى صوت ونداء عميق ينبهني إلى ماضٍ ليس بقريب ، إلى سنين خلت ، إلى ذكريات قد تَرَكْنَ في قلبي جرحاً عميقاً ، إلى صوت شيخ الجزيرة ، وما أدراك من شيخ الجزيرة ، كان طوداً شامخاً من التقوى والورع ، والوقوف عند حدود الله ، فحدَّثني بابتسامته المعروفة على ثغره الباسم ، حينما كان يريد أن يفصح عن خبر فيه تحقق حق ، فروى لي تفاصيل المناقشة التي كانت بينه وبين الدكتور ـ حفظه الله ـ وكيف أنَّ الدكتور قد اعتذر حينها بقوله : ما كنت أعلمُ أنَّ الرابطة موجودة عند النقشبنديين المقتفين آثار النَّبِيِّ ﷺ ، وكل ما أردت بيانه في درسي : التصرفات الشاذَّة والمنكرة من مشايخ العصر ، الذين اتخذوا الطرق وسيلة للتسلط على رقاب الناس وأموالهم ! وكرَّر الدكتور اعتذاره بما حصل من سوء التفاهم ، ولكن شيخنا أصرَّ عليه أن يعتذر ويبين الحقيقة في دروسه القادمة ، وكان قد قطع وعداً للشيخ في ذلك على نفسه .

□ □ □

الفصل الثاني

○ ينقل الشيخ رشيد الراشد التادفي الحلبي في رسالته « تعريف المحبين في أنوار فيوضات النّبيّ ﷺ » وأنَّ نوره متصل بكلِّ شيء ، ونفع الصَّلاة عليه وإنها تقوم مقام الشيخ في التربية :

○ قال أبو العباس التيجاني رضي الله عنه : إنَّ الصلاة على النَّبيِّ ﷺ عظيمة ، وهي باب الكمال ، وهي المدخل الأعظم ، ومن تركها لا يجد باباً من غيرها يدخل عليه ﷺ ، ثم قال : وأنْ يستحضر المصلِّي صورة المصطفى ﷺ ، وأنه جالس بين يديه ﷺ ، بهيبة ووقار ، وإعظام وإكبار ، ويستمد منه بقدر حاله ومقامه ، ويستحضر مع ذلك معاني الألفاظ .

○ وقال ـ أيضاً ـ كما نقله في جواهر المعاني ما ملخصه : يجب على المريد أن يلازم الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ بشدة حضور القلب ، في تأمل المعاني حسب الطاقة ، مع اعتقاده أنه جالس بين يديه ﷺ ، مع دوام الإعراض عن كلِّ ما يقدر عليه ، من هوى النفس وأغراضها ، ويستغرق ما يطيقه من الأوقات في كثرة الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ ، بالتأدب والحضور ، واستحضار القلب إنه جالس بين يديه ﷺ ، وليداوم على ذلك ، فإنَّ من داوم على ذلك وكان اهتمامه بالوصول إلى الله تعالى اهتمام الظمآن بالماء أخذ الله بيده وجذبه إليه ، إمّا أن يُقَيِّضَ له نبيّه ﷺ ليربّيه ، وإمّا أن يفتح له باب الوصول ورفع الحجب ، بسبب ملازمته للصَّلاة على

حبيبه ﷺ ، فإنها أعظم الوسائل إلى الله تعالى في الوصول إليه ، وما لازمها أحد قط في طلب الوصول إلى الله تعالى ، فخاب »[1] .

□ قال عبد الكريم الجَيْلي رضي الله عنه في كيفية التعلق بجنابه ﷺ هي : دوام استحضار صورته ﷺ والتأدب لها حالة الاستحضار بالإجلال والتعظيم والهيبة ، فإن لم تستحضر تلك الصورة البديعة المثال ، وكنت قد رأيته وقتاً مّا في نومك ، فاستحضر الصورة التي رأيتها في النوم ، فإن لم تكن رأيته لم تستطع أن تستحضر تلك الصورة المشخصة الموصوفة بعينها ، فاذكره وصَلِّ عليه ﷺ ، وكن في حال ذكرك له كأنك بين يديه في حياته ، متأدباً بالإجلال والتعظيم ، والهيبة والحياء ، فإنه يراك ويسمعك كلما ذكرته ، فإن لم تستطع أن تكون بين يديه بهذا الوصف ، وكنتَ قد زرتَ يوماً مّا قبره الشريف ، فاستحضر في ذهنك قبره الشريف كلما ذكرته ، أو صلَّيْتَ عليه ﷺ ، وكن كأنك واقف عند قبره الشريف ﷺ ، مع الإجلال والتعظيم ، إلى أن تشهد روحانيته ظاهرة لك ، فإن لم تكن زرتَ قبره الشريف ، ولا رأيتَ موطن حضرته وروضته ، فأدم الصَّلاة عليه ، وتصور أنه يسمعك ﷺ ، وكن إذ ذاك متأدِّباً جامع الهِمَّة لتصل إليه صلاتك عليه وأنت حاضر بقلبك لديه ، فإنَّ لجمع الهِمَّة أثراً ، واستحي أن تذكره أو تصلي عليه ﷺ ، وأنت مشغول بغيره ، فتكون صلاتك جسماً بلا روح ، لأنَّ كل عمل يعمله العبد من أعمال البر ، إذا كان منوطاً بحضور القلب ، كانت صورة ذلك العمل حيَّة ، وإذا كان منوطاً بالغفلة وشغل الخاطر بالغير كانت صورته ميتةً لا روح لها »[2] .

---

(١) تعريف المحبين ، ص : (٢٠ ـ ٢١) للتادفي رحمه الله تعالى .

(٢) تعريف المحبين ، ص : (٣٣ ـ ٣٤) .

الفصل الثالث

□ ويقول محقِّق كتاب مكتوبات مولانا الشيخ خالد النقشبندي في مقدمته على كتاب المكتوبات ما نصه :

« من الأعمال الرائجة في الطريقة النقشبندية : « الرابطة » وهي عبارة عن ربط القلب بالشيخ الكامل المكمَّل ، على وجه المحبَّة ، والإنسان لا يخلو من رابطة ما ، فمِنْ مرابط لماله ، ومِنْ مرابط لحرفته ، ومِنْ مرابط للنساء ، ومن مرابط لأصحابه وأخدانه ، إلى غير ذلك ، فالرابطة في اصطلاح الصوفية ليست إلّا عبارة عن نفي هذه الروابط عن القلب ، وصرفه عنها ، وجمعه على ربطه بالشيخ ، وتخيل كأنه معه ، ومن المقرَّر أن إعمال الفكر في أمر من الأمور وربطه به على سبيل المحبَّة ، لا سيَّما إذا استولت هذه الخطرة على القلب ، يعمل في نفس الإنسان عمل مزاولة ذلك الأمر ، فأعماله في الأمور المحمودة محمود ، وفي الأمور المذمومة مذموم ، ومن ثَمَّ قال بعض الفقهاء : فحرمة مجامعة الرجل امرأته متفكراً في محاسن أجنبية .

□ وقال بعضهم : كلُّ ما يحرم النظر إليه ، يحرم التفكر فيه .

□ فهذا حكمٌ من هؤلاء العلماء بحرمة « رابطة » الأجنبية واستحسان رابطة الصلحاء ، فَصَرْفُ القلب عن التفكر في الأمور المحرمة والمباحة ، وجمعه على إعماله في محبة بعض الصلحاء وربطه به ، الذي ليست

الرابطة إلَّا هو ممّا لا ينبغي أن يقدم على إنكاره عاقل ، فإنه لا شكَّ يفيد فائدة بصحبة ذلك الصّالح ، وصحبة الصلحاء مما قامت الدلائل النقلية على طلبها أشد الطلب ، فالرابطة ليست إلَّا صحبة خيالية ، ومن ثَمَّ استدل بعض الأجلة على طلبها بقوله تعالى : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] وعمّم الكينونة لما يكون بالجسم وما يكون بالخيال ، ومن فوائد الرابطة تحصيل عظمة ذلك الصالح ، ومحبته في قلب المرابط ، المورثتان للمواظبة على صحبته ، وامتثال أوامره ، واجتناب مناهيه ، والتخلق لأخلاقه ، والاهتداء بهديه .

□ وفي كتاب « البهجة السَّنيّة » : أمّا الدليل على الرابطة فقد روي أنَّ سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه شكا للنبي ﷺ عدم انعكافه عنه حتى في الخلاء ، وكان أبو بكر يأخذه الحياء من ذلك . انتهى بتصرف .

□ وذلك بحسب الخيال ، وهذه الحالة تسمى عند الصوفية بالفناء في الرابطة ، هذا وبعض المجازفين ممن لا يقام لكلامه وزن ويتورط في كلّ وعر وحَزَن يعد الرابطة شركاً ، وإذا كانت الرابطة شركاً فليس على وجه الأرض موحِّد ، لأنَّ الإنسان لا يخلو من رابطة مّا »[١] .

□ □ □

(١) بغية الواجد في مكتوبات مولانا خالد ، ص : (١٠ - ١١) .

الفصل الرابع

□ وقد كتب قطب دائرة الإرشاد غوث الثقلين على السداد السائر إلى الله والراكع السَّاجد ، ذو الجناحين ، مولانا ضياء الدِّين الشيخ « خالد » المدفون في دمشق ، الذي تتلمذ على يده كبار أعيان علماء دمشق في عصره ، أمثال ابن عابدين صاحب الحاشية في المذهب الحنفي ، وغيره ، إلى بعض تلاميذه يبين له أهمية الرابطة وكيفيتها في الطريقة النقشبندية ، وقد نقلتها لكم جميعها لتمام الفائدة وكمال النفع بها :.

□ « بلغنا أنَّ بعض الغافلين عن أسرار حق اليقين يعدون « الرابطة » بدعة في الطريقة ، ويزعمون أنها شيء ليس له أصل ولا حقيقة ! كلَّا إنها أصل عظيم من أصول طريقتنا العلية النقشبندية ؛ بل هي أعظم أسباب الوصول بعد التمسك التَّامِّ بالكتاب العزيز وسُنَّة الرسول عليه الصلاة والسلام .

□ ومن جملة ساداتنا من كان يقتصر في السلوك والتسليك عليها .

□ ومنهم من كان يأمر بغيرها ـ أيضاً ـ مع تنصيصه على أنها أقرب الطرق إلى الفناء في الشيخ ، الذي هو مُقدِّمة الفناء في الله تعالى .

□ ومنهم من أثبتها بنص قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة : ١١٩] فقال من السادة الكبار الشيخ عبيد الله المشهور بـ « خواجه أحرار » قدس سره ، ما حاصله :

□ إنَّ الكينونة مع الصادقين المأمور بها في كلام ربِّ العالمين ، الكون

معهم صورة ومعنىً ؛ ثم فسر الكينونة المعنوية بالرابطة ، وهو عند أهله مشهور ، وفي كتاب الرشحات بالتفصيل مسطور ، فكأنهم لم يتصوروا معنى الرابطة اصطلاحاً ، وإلَّا لما وسعهم إنكارها إذ هي في الطريقة عبارة عن استمداد المريد من روحانية شيخه الكامل الفاني في الله ، وكثرة رعاية صورته ، ليتأدب ويستفيض منه في الغَيْبَة كالحضور ، ويتم له باستحضاره الحضور والنور ، وينزجر بسببها عن سفاسف الأمور ، وهو أمر لا يتصور جحوده إلَّا مَنْ كتب الله تعالى في جبهته الخسران واتسم ـ والعياذ بالله تعالى ـ بالمقت والحرمان ، لأنه إن كانَ ممن يعتقد بالأولياء فقد صرَّحوا بحسنها وعظم نفعها ؛ بل اتفقوا عليها ، كما لا يخفى على من تتبع كلماتهم القدسية واستنشق نفحاتهم الأنسية ، وإلَّا فلا بد أن يعتقد بكلام أئمة الشرع وأساطين الأصل والفرع ، فقد قال بها من كل مذهب من المذاهب الأربعة أئمة تصريحاً ، وها أنا أعد بعض ما ذكروه مع تعيين الأماكن ، ليراجعها من ليس في قلبه مرض ، ولا ينكر على الأولياء بمجرد اتباع الهوى والغرض ، فأقول وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق :

□ قال من الأئمة الحنفية ، الشيخ الإمام أكمل الدِّين في « شرح المشارق » في حديث :

« مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ »[1] .

الاجتماع بالشخص يقظةً ومناماً ، موقوف لحصول ما به الاتحاد ، وله خمسة أصول كلية : الاشتراك في الذات ، أو في صفة فصاعداً ، أو في الأفعال ، أو في حالٍ فصاعداً ، أو في المراتب .

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (٦٥٩٥) ومسلم ، رقم : (٢٢٦٧) .

وكل ما يتعلق من المناسبة الاجتماع بين شيئين أو أشياء لا يخرج عن هذه الخمسة ، وبحسب قوّته على ما به الاتحاد وضعفه ، يكثر الاجتماع ويقل ، وقد يُقوّى على ضده فتقوى المحبة ، بحيث يكاد الشخصان لا يفترقان ، وقد يكون بالعكس . ومن حصَّل الأصول الخمسة ، وثَبتتِ المناسبة بينه وبين أرواح الكُمَّل الماضين ، اجتمع بهم متى شاء . انتهى .

□ قال من الأئمة الشافعيَّة : الإمام الغزالي في « الإحياء » وفي باب تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن من الصلوات ما نصُّه :

وأحضر في قلبك النّبيَّ ﷺ وشخصَه الكريم ، وقل : السلام عليك يا أيها النَّبيُّ ، وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه . انتهى .

□ وقال منهم العلاَّمة الشهاب ابن حجر المكي ، ـ شيخ الشهاب الخفاجي ـ في شرح العباب ، في بيان معاني كلمات التشهد ما نصه :

وخوطب ﷺ كأنه إشارة إلى أنه تعالى يكشف له عن المصَلِّين من أمته ، حتى يكون كالحاضر معهم ، ليشهد لهم بأفضل أعمالهم ، وليكون تذكر حضوره سبباً لمزيد الخشوع والخضوع ، ثم أيده بما مرَّ عن « الإحياء » .

□ وقال منهم ـ أيضاً ـ مُحَشِّي الأشباه : أحمد بن محمد الشريف الحموي في كتابه « نفحات القرب والاتصال بإثبات التصرف لأولياء الله تعالى والكرامة بعد الانتقال » ما خلاصته :

إنَّ الأولياء يظهرون في صور متعددة ، بسبب غلبة روحانيتهم على جسمانيتهم ، وحمل على هذا المعنى ما في بعض روايات الحديث الصحيح حيث قال ﷺ : ينادى من كل باب من أبواب الجنة بعض أهل

الجنة . فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه : وهل يدخل أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال :

« نَعَمْ ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ »[1] انتهى بالمعنى .

وقالوا : إنَّ الروح الكلية تظهر في سبعين ألف صورة في دار الدنيا ، ففي البرزخ أَوْلى ، لأنَّ الروح فيه أغلب وأشد استقلالًا ، وأقوى وأكثر انتقالًا ، بسبب المفارقة عن البدن . انتهى .

□ ولشيخ الشيوخ الإمام العارف السُّهروردي الشافعيّ في « العوارف » في باب الصلاة لأهل القرب مثله ، ومن عباراته : ويسلم على النَّبي ﷺ ويُمثِّله بين عَيْنَيْ قلبه . انتهى .

□ وصرح العلاَّمة الشهاب ابن حجر في أواخر « شرح الشمائل » وفاقاً للحافظ الجلال السيوطي في كتابه « تنوير الحلك في رؤية النَّبيِّ والمَلَك » أنه حكى عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه رأى رسول الله ﷺ في النوم فدخل على بعض أمّهات المؤمنين ، فأخرجتْ له مرآته ﷺ ، فرأى صورته ﷺ ولم ير صورة نفسه[2] . انتهى .

وهذا هو الفناء في « الرابطة » في اصطلاح القوم ، لا يقال : ليس الكلام في صورة النَّبيِّ ، لأننا نقول : إن هذا ليس من خصائص الأنبياء ، وكل ما هو كذلك فهو مشترك بينهم وبين الأولياء ، ولاشك في هذا عند أهله ، نعم مخاطبة غيره ﷺ في الصَّلاة مبطلة لها ، وإحضاره الصورة فيها والتسليم على صاحبها من خصائص حضرة روح الوجود ، صاحب المقام

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (١٧٩٨) ومسلم ، رقم : (١٠٢٧) والترمذي ، رقم : (٣٦٧٥) .

(٢) الحاوي للفتاوي : (٢/٤٣٨ ـ ٤٣٩) للإمام السيوطي رحمه الله تعالى .

المحمود ، عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والتسليم من الكريم الودود ، وهو غير مراد في ما نحن فيه هذا .

□ وقال منهم الحافظ الجلال السيوطي في رسالة حافلة ، ألفها في مثل هذه المادة سماها « كتاب المنجلي في تطور الوليّ » نقلاً عن الإمام السبكي الشافعي في « الطبقات الكبرى » : الكرامات أنواع .. إلى أن قال : الثاني والعشرون : التطور بأطوار مختلفة ، وهو الذي يسميه الصوفية بعالم المثال ، وبنَوْا عليه تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة من عالم المثال ، واستأنسوا له بقوله تعالى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم : ١٧] ومنه قضية قضيب البان ، ثم ذكرها وذكر غيرها . انتهى .

□ وقال منهم الإمام الشَّعرانيُّ قدَّس الله تعالى سره في كتابه « النفحات القدسية » عند عدِّ آداب الذكر ما نصه :

السابع : أن يتخيَّل شخص شيخه بين عينيه . وهذا عندهم آكد الآداب . انتهى بحروفه .

قلت[1] : وليست « الرابطة » عندنا معاشر النقشبندية إلَّا هذا ، كما يشهد له ما في جميع كتبهم المعتمدة .

□ وذكر العلاَّمة السفيري الحلبي من الشافعية في شرح البخاري عند قول السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تصف حالة رسول الله ﷺ قبل نزول الوحي : ثمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ[2] :

إنَّ الشيطان كما لا يقدر أن يتمثل بصورة النبيِّ ﷺ ، لا يقدر أن

---

(١) أي : مولانا خالد النقشبندي رحمه الله تعالى .

(٢) أخرجه البخاري ، رقم : (٣) ومسلم ، رقم : (١٦٠) والترمذي رقم : (٣٦٣٦) .

يتمثَّل بصورة الوليِّ الكامل ـ أيضاً ـ بشرطٍ ذكره ثَمَّة » .

□ .وقال من أكابر الحنفية ـ أيضاً ـ العلاَّمة الشريف الجرجاني ، قدس الله سرَّه ، في أواخر شرح المواقف ، قبيل ذكر الفرق الإسلامية ، بصحة ظهور صور الأولياء للمريدين وأخذهم الفيوض منها ، حتى بعد الموت ، وكذا في أوائل حواشيه على شرح المطالع .

□ وقالَ منهم الإمام العارف بالله تعالىٰ الشيخ تاج الدين الحنفي النقشبندي العثماني ، قدَّس الله تعالىٰ سِرَّه ، عند بيان طرق الوصول إلىٰ الله تعالىٰ في رسالته المعروفة بالتاجية ما نصه :

الطريق الثالث : الرابطة بالشيخ الذي وصل إلىٰ مقام المشاهدة ، وتحقق بالصفات الذاتية ، فإن رؤيته بمقتضىٰ هم :

« الذينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله »[1] . تفيد فائدة الذكر وصحبته بموجب هم جلساء الله تعالىٰ تنتج صحبة المذكور تعالى . . إلى أن قال : فينبغي أن تحفظ صورة الشيخ في الخيال ، وتتوجه للقلب الصنوبري ، حتىٰ تحصل الغَيْبة والفناء عن النفس ، وإن وقفت عن الترقِّي فينبغي أنْ تجعل صورة الشيخ علىٰ كتفك الأيمن ، وتفرض من كتفك إلىٰ قلبك أمراً ممتداً ، (يعني : خطّاً موهوماً) وتأتي بالشيخ علىٰ ذلك الأمر الممتد وتجعله في قلبك ، فإنه يرجىٰ لك بذلك حصول الغَيْبة والفناء .

□ وجرىٰ عليه قدوة المحققين ، وزبدة المتأخرين ، الشيخ العارف « عبد الغني النابلسي » الحنفي ، قدس الله سره ، وأقره في شرحه علىٰ التاجية .

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، رقم : (٤١١٩) .

□ وقال من أئمة الحنابلة الغوث الأعظم والإمام الأفخم ، سيدي الشيخ عبد القادر الجَيْلي قدس سره ، ما معناه :

إنَّ للفقير أي : السالك طريق القوم رابطة قلبية مع الأولياء ، ويستفيد منهم بسبب تلك الرابطة باطناً ، فلا بأس بعدم إكرامهم ظاهراً ، بخلاف الأجنبي الذي له رابطة معهم . انتهى ، نقلاً عن الإمام السُّهروردي في باب آداب المريد مع شيخه من « عوارفه » .

□ وقال منهم ـ أيضاً ـ العلامة شمس الدين ابن قيِّم الجوزية في كتابه « الروح » : إنَّ للروح شأناً آخر غير شأن البدن ، وتكون في الرفيق الأعلىٰ ، وهي متصلة ببدن الميت ، بحيث إذا سُلِّمَ علىٰ صاحبها رَدَّ السلام ، وهي في مكانها هناك . انتهىٰ ، نقلاً عن الحافظ السيوطي في كتاب المنجلي .

□ قلت : والنصوص بهذا المعنىٰ أكثر من أن تحصىٰ ، وفيه دلالة ظاهرة علىٰ نوع تصرف للأولياء بعد الموت ، وقد ألَّف كثير من المحققين في ذلك رسائل واضحة المسالك ، فليحذر الموفَّق عن إنكاره ، فإنه من المهالك .

□ وقال من أئمة المالكية ، الإمام الجليل صاحب المختصر المشهور « الشيخ خليل » رحمة الله عليه ، ما نصه : إنَّ الوليَّ إذا تحقَّقَتْ ولايته تمكن من التصور في روحانيته ، ويُعطَىٰ من القدرة علىٰ التصور في صور عديدة ، وليس ذلك بمحال ، لأنَّ المتعدد هو الصورة الروحانية ، وقد اشتهر ذلك عند العارفين بالله . (نقله السيوطي عنه في الكتاب المذكور) .

□ ونقل فيه عن الإمامين الهمامين من المالكية ، الشيخ أبي العباس

المُرسي ، وتلميذه ابن عطاء الله الإسكندري ، قدس الله سرهما : ما يقاربه .

□ فكيف يسوغ للعوامّ إنكار مثل هذه الأحكام بعد تصريح الأولياء الكرام ، والعلماء الأعلام ؟ الذين هم أهل الحلّ والإبرام ، ومنهم من يتلقىٰ العلوم اللدنية بلا واسطة من الحيِّ الذي لا ينام ، واقتصرتُ علىٰ هٰذا القَدْر من الكلام ، خوفاً من الإملال والإسآم ، وإلّا لألّفتُ فيه مجلداً حافلاً بعون الله الملك المتعالي ، ولولا رعاية الشفقة علىٰ الإخوان في الدِّين ، من وقوعهم في إنكار طور الأولياء الكاملين ، لما أقدمتُ علىٰ إظهار بعض هذه الأسرار ، لكن ألجأني إليه أمران :

□ الأول : الذَّبُّ عن الطريقة التي هي عروة الوصول ، وسُلَّم رضوان الله تعالىٰ واتِّباع الرسول ، التي أصولها التمسك بعقائد أهل السُّنَّة ، الذين هم الفرقة الناجية ، وترك التقاط الرخص ، والأخذ بالعزائم ، ودوام المراقبة ، والإقبال علىٰ المولىٰ ، والإعراض عن زخارف الدنيا ؛ بل عن كلِّ ما سوىٰ الله تعالىٰ ، وملكة الحضور المعبر عنه في الحديث الشريف : الإحسان ، وهو :

« أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[1] .

والخلوة في الجلوة ، مع التحلِّي بالاستفادة والإفادة في علوم الدِّين ، والتزيِّي بزيِّ عوامِّ المؤمنين ، وإخفاء الذكر وحفظ الأنفاس ، بحيث لا يخرج ولا يدخل النَّفَس من الغفلة عن الله الكريم ، والتخلق بأخلاق الله سبحانه وتعالىٰ ، وصاحب الخُلُق العظيم ، عليه الصلاة والتسليم .

□ وبالجملة ، فهذا الطريق بعينها هي طريقة الأصحاب الأنجاب ،

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (٥٠) ومسلم ، رقم : (٨) .

عليهم الرضوان من غير زيادة ولا نقصان ، وهي عبارة عن عزائم الكتاب والسُّنَّة ، ولهذا قال إمام الطريقة وغوث الخليقة ، الشيخ بهاء الحق والدِّين محمد البخاري ، المعروف بـ « شاه نقشبند » قدس الله سره ، ما معناه : من أعرض عن طريقتنا[1] فهو في خطر من دينه .

□ والأمر الثاني : التحذير عن تمويه الغافلين وتزويرهم ، لئلا يؤدِّي إلىٰ إنكار هذه الطائفة وتكديرهم ، ويسري من شؤمه ـ والعياذ بالله تعالىٰ ـ شيء إلىٰ باب لا يزال الفقراء الصادقون ، متضرعين إلىٰ الله تعالىٰ لتأييده وبقائه ، ولحفظه من فتن حساده ، ومكائد أعدائه .

□ وهذا الفقير يوصيكم بجميع ما تقدم من الآداب ، ويخبركم بأنه يَبْرأُ إلىٰ الله تعالىٰ من كلِّ من يخالف السُّنَّةَ والكتاب ، ولم يتَّبعْ هَدْيَ النَّبيِّ والأصحاب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، في البدء والختام ، والحمد لله الملك العلاَّم[2] .

---

(١) المتمثلة في كتاب الله ، وسُنَّة رسوله ﷺ ، وما عليه السلف الصّالح رحمهم الله تعالىٰ .
(٢) الحدائق الوردية ، ص : (٢٩٥ ـ ٢٩٧) .

الفصل الخامس

□ يقول مترجم كتاب « رشحات عين الحياة » : ثم طريق السلوك ثلاثة :

١ ـ طريق الصحبة .

٢ ـ وطريق الذكر .

٣ ـ وطريق المراقبة .

كلٌّ ذلك موصل بنفسه برعاية شروطه ، من غير توقف أحدها على الآخر .

□ ١ ـ والصحبة : على نوعين ، صحبة بحسب الظاهر ، وصحبة بحسب الباطن ، ويسمَّىٰ الأخير عندهم « رابطة » يعني : ارتباط المريد بالشيخ بحسب المحبة ، والعلاقة المعنوية الروحانية وتقوية به ، على ما قال المفسرون في قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الكهف : ١٤] أي : وقويناها بالصبر عل هجران الأوطان والفرار بالدِّين إلىٰ بعض الغَيْران[١] وجسرناهم علىٰ القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام ، وكل من صبر علىٰ أمر فقد ربط نفسه عليه ، وحاصلها تألف قلب المريد بقلب

---

(١) جمع غار ، وهو الكهف .

شيخه وهو نعمة عظيمة ولو بواحد من آحاد المؤمنين ، حيث قال الله تعالىٰ :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

فما ظنُّك لو كان ذلك واحد من صاحب دولة لائقة ، بالوساطة بين المريد المستوطن في حضيض البُعْدِ والهجران ، وبين الملك المنَّان ، أو هي توسل المريد بشيخه إلىٰ الله تعالىٰ وهو ـ أيضاً ـ أمر مطلوب ومحمود ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] .

والوسيلةُ : تعمُّ كلَّ ما يصلح أن يتوسل به، طاعةً كان أو واحداً من أولياء الله تعالىٰ ، يدل علىٰ ذلك آية أخرىٰ ، وهي قوله تعالىٰ :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

قال المفسرون : هي القربة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ والدرجة العليا .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هم : عيسىٰ ، وأمُّه ، وعُزَير ، والشمس ، والقمر ، والنجوم .

﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ : بدل من واو ليبتغون ، وأي : موصولة ، أي : يبتغي من هو أقرب منهم الوسيلة إلىٰ الله ، فكيف بغير الأقرب ؟ أو ينظرون أيهم أقرب إلىٰ الله فيتوسلون به ، ولا ينكر على ذلك إلَّا أهل الغِرَّة بالله ، فكيف وقد قال العلماء في مفتتح الكتب ، في بيان حكمة الإتيان بالصلاة علىٰ النبيِّ ﷺ وآله وأصحابه : ينبغي للعاقل أن يستعين في جميع أموره وكل شؤونه بجناب الحقِّ سبحانه وتعالىٰ ، ويسأله إفادة طلبه وإفاضتها ،

وإنجاح بغيته ، دنيوية كانت أو دينية ، عاجلة كانت أوْ آجلة ، لكن لا بُدَّ من نوع الملائمة والقرب المعنوي بين المُفيض والمُستفيض .

ولكوننا متعلقين غاية التعلق بالعلائق البشرية ، والعلائق البدنية ، ومتدنّسين بأدناس اللذات الحسية والشهوات الجسمية ، وكونه تعالىٰ في غاية التقديس والتنزُّه ، تكون ملائمة منتفية رأساً ، فاحتجنا في سلوك سبيل الاستفاضة منه جلَّ وعلا إلىٰ متوسط ، له وجه تجرد ووجه تعلق ، فبوجه التجرد يستفيض من الحق ، وبوجه التعلق يفيض علينا ، وهذا المتوسط أشرف أصحاب الوحي وأعظمهم رتبة : نبيُّنا ﷺ ، ولما كانت ملائمة الآل والأصحاب بالنَّبيِّ ﷺ أكثر من ملائمتنا له ، وملائمتنا للآل وللأصحاب أكثر من ملائمتنا له عليه الصلاة والسلام ، جرت العادة بالتوسُّل بهم بالصلاة والسلام ، وكلما كانت الملائمة أكمل وأوفر كان أمر الاستفاضة أتم ، وحصول الإفاضة أكثر ، ولا شكَّ أنَّ ملائمتنا بالمشايخ الكرام أكثر من ملائمتنا بالآل والأصحاب العظام ، فضلاً بالنَّبيِّ ﷺ والملك العلاَّم ، وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ :

﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

وقد صُنِّفتْ في هذا الباب رسالات كثيرة ، ومرَّ في « رشحات عين الحياة » في مواضع عديدة ما فيه شفاء للمتبصر ، وكيفيتها هو : استحضار صورة شيخه في خياله ، وملاحظة المعنوية الروحانية معه في جميع حالاته ، برعاية كمال الأدب ، وغاية التعظيم له ، كما هو معروف ومذكور في كتبهم[١] .

□ وقد جاء في كتاب : « رشحات عين الحياة » ـ أيضاً ـ في معنىٰ قوله

---

(١) رشحات عين الحياة ، الهامش ، ص : (١٩٤ ـ ١٩٨) .

تعالىٰ : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة : ١١٩] : إن للكينونة معهم معنين : كينونة بحسب الصورة ، وهي التزام مجالسة أهل الصدق ومصاحبتهم ، حتّىٰ يُنَوَّر باطنه بأنوار صفاتهم وأخلاقهم ، بسبب دوام الصحبة معهم ؛ وكينونة بحسب المعنىٰ ، وهو أن يلتزم طريق الرّابطة بحسب الباطن ، بطائفة يستحقون الوساطة ، ولا تنحصر الصحبة في المجالسة الصورية والنظر بالعين ؛ بل ينبغي أن يجعل الصحبة دائمة ، وأن يتجاوز عن الصورة إلى المعنىٰ ، حتىٰ تكون الواسطة في نظره دائماً ، فإنْ روعي هذا المعنىٰ علىٰ الدوام تحصل لسِرِّ الطالب مناسبة واتحاد بِسِرِّ المرشد ، ويكون المقصود الأصلي الحاصل حقيقته بتلك الواسطة .

وجاء في معنىٰ هذه الآية ـ أيضاً ـ وما يفهم من هذا الأمر الواجب الامتثال ، لزوم كون القلب مرتبطاً بواحد من الصادقين ، وهم طائفة قد ارتفع المسمَّىٰ بالغير من عيون بصيرتهم ، فإنه يقال : رمح صُدِقَ لرمح ، يوجد فيه جميع ما يلزم الرمح من الاستقامة وأصالة الجوهر وغيرهما .

□ والذي يلزم الإنسان أن يتحلّىٰ به حتىٰ يبلغ درجة الكمال ، ليس هو غير التوجُّه الصادق الخالص إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ الدَّوام ، ولمّا كان للإنسان استعداد تامّ للتأثر بمن يصحبه ويجالسه ، كان مأموراً بهذا الأمر ، وأي عمل يعدل ويقابل جذبة واردة من طرف الحق سبحانه ، ببركة صحبة الصادقين ؟ وجذبة من جذبات الحقِّ توازي عمل الثقلَيْنِ[١] .

□ □ □

---

(١) رشحات عين الحياة ، ص(١٨٤ ـ ١٨٥) .

الفصل السادس

□ وقد جاء في كتاب « السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية » للشيخ عبد المجيد الخاني ما نصه :

« اعلم أيها الأخ المؤمن! أنَّ الرابطة عبارة عن ربط القلب بالشيخ الكامل ، الواصل إلى مقام المشاهدة الإلهية ، المتصرِّف بقوَّة الولاية ، المشهود له بالكمال من كمَّل الرِّجال ، وحفظ صورته بالخيال ، ولو عند غَيْبَتِه ، أو بعد وفاته ، ولها صور أهونها : أن يتصور المريد صورة شيخه الكامل بين عينيه ، ثم يتوجه إلى روحانيته في تلك الصورة ، ولا يزال متوجِّهاً إليها بكليته حتى يحصل له الغَيْبة ، أو أثر الجذبة ، فبعد حصول أحد الأمرين : يترك الرّابطة ، ويشتغل بالأمر الحاصل بالجذبة ، أو الغَيْبة ، وكلما زال عنه ذلك الحال عاد إلى الرابطة ، حتى يرجع ذلك إليه ، وهكذا يداوم على « الرابطة » حتى يفنى عن ذاته وصفاته ، في صورة الشيخ ، فعند ذلك يشاهد روحانية الشيخ مع كمالاته في صورة نفسه ، لأنَّ الكمالات لا تفارق الروحانية ، فتربِّيه روحانيةُ الشيخ بعد ذلك إلى أن توصله إلى الله تعالى ، ولو كان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب ، فبالرابطة يستفيض الأحياء من الأموات المتصرِّفين ، والشيوخ من الشبَّان الواصلين »[1] .

---

(١) السعادة الأبدية ، ص : (٢٢ ـ ٢٣) .

□ يقول الشيخ عبد المجيد الخاني في كتابه « السعادة الأبدية » ـ أيضاً ـ ما نصه :

فإذا ظفِرَتْ يا أخي يداك ، ـ تولّى الله هداك ـ بمثل هذا الشيخ الكامل ، فالزم بابه ، واخدم أعتابه ، واغنم سعادة صحبته ، واعلم أنَّ الإفادة في صدق محبته ، فإنَّ صحبته وخدمته تغني المريد الصادق عن هَمِّ الرِّياضات والمجاهدات ، ومشاق الأذكار والأفكار ، وهي عندنا من أقرب طرق الوصول إلى الله تعالى .

□ ولله دَرُّ مولانا العارف الجامي ـ قدِّس سِرُّه السامي ـ حيث يقول من أبيات فارسية قد عربتها في كتابي « الحدائق الوردية في حقائق أجلاَّء النقشبندية » فقلت :

لِلنَّقْشِبَنْدِيَّةِ الْعِلْمُ الْعَجِيبُ بِما ... يَحُلُّ رَكْبُ الهُدَى بِالسِّرِّ فِي الْحَرَمِ
تَمْحُو بِصُحْبَتِها مِنْ قَلْبِ سَالِكِهَا ... هَمَّ الرِّياضاتِ وَالْخَلَواتِ بِالْهِمَمِ[1]

□ □ □

(١) السعادة الأبدية ، ص : (١٨ ـ ١٩) .

الفصل السابع

□ يقول الإمام الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » في باب بيان تفضيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة ، في الصفحة (١٦٦) من الجزء الأول :

« ... فاعلم أنه كما لا يتوجَّهُ الوجه إلى جهة البيت إلَّا بالانصراف عن غيرها ، فلا ينصرف القلب إلى الله عزَّ وجلَّ إلَّا بالتفرُّغ عمّا سواه .

وأمّا الاعتدال قائماً فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عزَّ وجلَّ ، فليكن رأسك ـ الذي هو أرفع أعضاءك ـ مطرقاً مطأطئاً متنكساً ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبرِّي عن الترؤس والتكبر ، وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله عزَّ وجلَّ في هول المطلع عند العرض للسؤال .

واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عزَّ وجلَّ ، وهو مطَّلع عليك ، فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان ، إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله ؛ بل قدِّرْ في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعينِ كالِئَةٍ من رجل صالح من أهلك ، أو ممَّن ترغب في أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك ، وتخشع جوارحك ، وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبكَ ذلك العاجز المسكين إلى قلَّة الخشوع ، وإذا أحسَنتَ من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها : إنك تدَّعين معرفة الله وحبه ، ألا تستحين من اـ تجرائك عليه؟

مع توقيرك عبداً من عباده ، أو تخشين الناس ولا تخشينه ، وهو أحق أن يخشى! ولذلك لما قال أبو هريرة : كيف الحياء من الله؟ فقال ﷺ :

« تَسْتَحِي مِنْهُ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ »[1] .

□ ويقول الإمام الغزالي في الصفحة (١٦٩) من الجزء الأول ـ أيضاً ـ عند الكلام على الصَّلاة والسَّلام على الرسول ﷺ :

« ... وأحضِرْ في قلبك النَّبيَّ ﷺ ، وشخْصَهُ الكريم وقل : سلام عليك أيها النَّبيُّ ورحمة الله وبركاته ، وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه ، ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين » .

□ □ □

---

(١) أخرجه الخرائطي والبيهقي في الشعب [العراقي على إحياء علوم الدين : ١٦٦/١] .

الفصل الثامن

□ ويقول العارف بالله المرحوم الشيخ « محمد أمين الكردي » الإربلي الشافعي النقشبندي ، المتوفى سنة : (١٣٣٢) هـ صاحب كتاب « تنوير القلوب » في كتابه هذا ، عند بيان آداب الذكر عند السّادة النقشبندية :

التاسع : رابطة المرشد ، وهي مقابلة قلب المريد بقلب شيخه ، وحفظ صورته في الخيال ، ولو في غَيْبَتِهِ ، وملاحظة أنَّ قلب الشيخ كالميزاب ، ينزل الفيض من بحره المحيط إلى قلب المريد المرابط ، واستمداد البركة منه ، لأنه الواسطة إلى التوصل ، ولا يخفى ما في ذلك من الآيات والأحاديث ، قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة : ١١٩] . قال ﷺ : « ٱلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »[1] .

قال العارفون : « كن مع الله ، فإن لم تستطع فكن مع من كان مع الله » .

وقالوا : الفناء في الشيخ مقدمة الفناء في الله ، ننبه من وجد حال

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (٥٨١٧) ومسلم ، رقم : (٢٦٤٠) وأبو داود ، رقم : (٥١٢٧) والترمذي ، رقم : (٣٥٢٩) .

إحضار الصورة سُكْراً ، أو غَيْبَةً ، فليترك الالتفات إلى الصورة ، وليكن متوجِّهاً إلى ذلك الحال[1] .

ويذكر صاحب كتاب « تنوير القلوب » في مكان آخر في كتابه ، عندما يتكلم على بعض طرق الوصول إلى الله بقوله :

« ثم إنه لا يمكن للعبد حسب ما جرت به العادة : أن يصل إلى هذا المقام الأسنى بنفسه ؛ بل لا بُدَّ له من قائد كامل وصل إلى مقام المشاهدة ، تحقق بالصفات الذاتية ، فيجب على المريد أن يستمد من روحانية شيخه الكامل الفاني في الله ، وكثرة رعاية صورته ، ليتأدب ويستفيض منه في الغَيْبَةِ كالحضور ، ويتم له باستحضار الحضور والنور ، بأن يحفظ صورته في خياله متوجهاً للقلب الصنوبري ، حتى يصل إلى الغَيْبَةِ والفناء عن النفس الذي هو مقدِّمة الفناء في الله تعالى ، حيث إنه محل للأسرار بطريق الوراثة عن ماجد فماجدٍ ، وكامل فكامل ، إلى حضرة رسول الله ﷺ ، وهذا ما يُسمى عندهم : « رابطة المرشد » وخلاصته : أنَّ ملاحظة الشيخ المرشد ليست لذاته ولطلب شيء منه على وجه الاستقلال ؛ بل لما حلَّ فيه من فضل الله تعالى ، مع اعتقاد أَنَّ الفاعل والمؤثر ليس إلّا الله وحده ، كما يقف الفقير بباب الغنيِّ يطلب منه شيئاً ، فهو يعتقد أن المعطي والمنعم هو الله ، وهو الذي بيده خزائن السموات والأرض ، ولا فاعل سواه ، وإنما يقف ببابه لعلمه بأنه باب من أبواب نعم الله تعالى ، يجوز أن يعطيه الله منه ، وهذا أمر لا يتصور جحوده إلّا من كتب الله على جبهته الخسران ، واتسم والعياذ بالله تعالى بالمقت والحرمان ، أولئك هم الأخسرون أعمالاً :

---

(١) تنوير القلوب ، ص : (٥١٢) .

﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف : ١٠٤] .

حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، ومالهم من ناصرين ، لأنه إن كان ممن يعتقد بالأولياء ، فقد صرَّحوا بحسنها وعظيم نفعها ، واتفقوا عليها ؛ بل قالوا : إنها أشد تأثيراً من الذِّكر في حصول الجذبة الإلهية ، وترقي السالك في معارج الكمال ، ومن جملة ساداتنا من كان يقتصر في السلوك والتسليك عليها ، ومنهم من أثبتها بنصِّ قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة : ١١٩] .

قال الشيخ الأكبر مولانا عبيد الله الأحرار المشهور بخواجه أحرار : إنَّ الكينونة مع الصادقين المأمور بها في كلام ربِّ العالمين على قسمين : كون بحسب الصورة ، وهي مجالستهم حتى تنطبع فيه صفاتهم ، وكون بحسب المعنى ، ثم فسر الكينونة بمعنى الرابطة »[1] .

□ □ □

(١) تنوير القلوب ، ص : (٥١٧) .

الفصل التاسع

□ يقول الشيخ عبد الرحمن التاغي ، وهو سلطان العارفين وقطب أقطاب الواصلين ، المشهور بـ « سَيْدا »[1] من كبار أجلاّء علماء تركيا في ولاية بدليس ، كان هو وخلفاءه وولده محمد ضياء الدين المعروف بـ « حضرتْ » منابر هدى وإرشاد ، وتربية للمسلمين في تلك الديار ، يعرف ذلك القاصي والدّاني ، حتى بلغ بالشيخ سعيد النوري المشهور بـ « بديع الزمان » رحمة الله عليه أن وصف مجلسهم بقوله في كتبه : من أراد أن يرى في هذا الزمان ملائكة في شكل بشر ، فليذهب إلى نورشين وليحضر مجلس الشيخ محمد ضياء الدِّين « حضرتْ » .

□ وكان الشيخ أحمد الخزنوي يقول في شيخه محمد ضياء الدين : رأيت في شيخي الأوصاف التي كنت أقرأها في الكتب حينما يعدون شروط وأوصاف الشيخ الذي يقتدى به ، وتتوفر فيه سمات الوراثة المحمدية ﷺ . ولذلك طلبهم قاطعاً مئات الأميال ، ومتحملاً المشقة وأخطار السفر ، فأخذ منهم العهد ، ودخل في سلك تربيتهم ، فكان ما كان من الشيخ أحمد الخزنوي ، وحصل ما حصل به النفع الكثير .

□ يقول الشيخ التاغي في رسالة إلى بعض تلاميذه من العلماء الأجلاء : يكون معلوم لديكم أنَّ الغوث الأعظم قدس سره (يعني : شيخه)

---

(١) سَيْدا : بمعنى الأستاذ .

وإن ارتحل من هذه الدار إلى تلك الدار ، وغابت عن بصرنا صورته المنورة ، نرجو من الله تعالى أن لا تغيب عن بصيرتنا وخيالنا ؛ بل المرجو أن تجيء أحسن منها في حال الحياة ، كما أخبر به ـ قُدِّس سِرُّه ـ بنفسه ، وأمر بالمداومة على « الرابطة » وقال : النسبة قوية ، ونفعي لكم في الممات مثله في الحياة ، وقال : إنَّ السيد طه (أي شيخه) قُدِّس سرُّه قال :

إنَّ السيف متى لم يخرج من الغمد لا يقطع ، فاللازم عليكم وعلى سائر المريدين المداومة على « الرابطة » وعدم التهاون في العمل بها[1] .

□ ويقول الشيخ نفسه في رسالة أخرىٰ :

أَفْنِ نَفْسَكَ في رابطة الأستاذ بعد الاستمداد منه ، رضي الله عنه ، ومِنْ أستاذه قُدِّسَ سِرُّه علىٰ غيرتها ومحبتها ، فإنها السبب في إعانة الله تعالىٰ ، واجعل مشهوراً بين أصحابك أنَّ المقصود من هذه الطريقة العليَّة هو الشريعة ؛ بل إنها الشريعة حتىٰ يقال لمن أتىٰ بشنيعة : كيف تفعل ما ليس بشريعة ؟![2] .

□ ويقول الشيخ في رسالة أخرىٰ إلىٰ أحد العلماء يبين أقسام الرابطة ما نصه :

« لمَّا رأىٰ كبراء سادات الطريقة العلية النقشبندية كبراءَ الطرق الأخرىٰ ، بَنَوْا طرائقهم علىٰ أعمال الجوارح ، لتطبع بها القلوب والسير التفصيلي ، أي : نفي الما سِوىٰ بإثبات الحقِّ ، لِمَا حكموا بأنَّ الانتهاء بالوحدة ، وتفكروا في أنَّ إطاعة القلوب بأعمال الجوارح صعب ،

---

(١) مكتوبات الشيخ التاغي ، ص : (١٣) .
(٢) المصدر السابق ، ص : (١٤) .

وعلموا من العزيمة والأحاديث الصحيحة : أنَّ الانتهاء بالأثنينية (أي : العبودية ، والربوبية) كما يقتضيه مفهوم كلمة الشهادة ، وبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام ، بِطُفَيْلِيَّةِ ﷺ[1] ،

وعقيدة أهل الحق بَنَوْا طريقتهم العلية علىٰ وفق طريقة الصحابة الكرام ، رضي الله عنهم ، وهو السعي في تنظيف القلب ، ثم العمل بما أمر به نبينا ﷺ ، ولمّا لم يكن حصول ما يحصل لصحابة النّبيِّ ﷺ أي : من المجالسة والمصاحبة واللقاء الحسِّي ، اختاروا في طريقتهم العلية الصحبة و« الرابطة » بحكم قوله تعالىٰ :

﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] فسره الشيخ الأحرار ـ قدّسَ الله سِرّه ـ بأنَّ الكينونية إمّا بالجسم وهو الصحبة ، أو بالمعنىٰ هو الرابطة وذكر القلب ، بحكم قوله تعالىٰ :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

فلما منَّ الله تعالىٰ علىٰ أحد بفضله وكرمه ، بإدخاله في سلك هذه الطريقة العلية ، وشربه شربة من صهباء المحبة الإلٰهية بُطفَيْلِيَّة محبة شيخ الإرادة ، جعلوا له بعد حصول الإخلاص والمحبة والتسليم وِرْداً « رابطة » شيخ الإرادة ، من صلاة المغرب إلىٰ صلاة العشاء ، وهي : أن يغمض عينيه ، ويفتح عيناً خيالية في الجبهة بين الحاجبين ، ناظرة إلىٰ صورة الشيخ ، اختار الأحرار قدس سره إلىٰ الوجه ؛ بل إلىٰ الجبهة منورةً ، إمّا بالمحبة إن كان من أهلها ، كرابطة الغوث الأعظم وقطب الإرشاد حضرة السيد طه قُدِّسَ سِرُّه ، والمجنون لليلىٰ ، وزليخا ليوسف ، والفرهاد لشيرين ؛ أو بجلب المنفعة كرابطة الشيخ خالد

---

(١) أي : بتبعية النُّبوّة للأُلوهيّة .

للغوث الأعظم ، والعطار للشاه[1] قدس سره ، وهي أن يرىٰ قلبه متدنساً بالكدورات البشرية ، وهو يريد إزالتها ، فليرَ قلبه كالمريض بين يدي الطبيب ، ويأتي شعاع وجه الشيخ إليه كأنه يزيله ، أو بالتظلل بظله ، كرابطة مولانا الرومي[2] للشمس التبريزي ، وهو أن يرىٰ نفسه هالكاً في الهوالك ، فلا يرىٰ طريق نجاة إلَّا التظلل بظله ، أو بالخوف كرابطة مشايخ بوطان لشيوخهم ، وهو أن يرىٰ نفسه متمثلة بأمر شيخ الإرادة ، ويخاف من قهره فيرابطه كي يعفو عنه ، أو بالفرار إليه كرابطة بعضٍ ، وهي أن يرىٰ أن ذئب الشيطان وأسد النفس يبغيان إهلاكه ، فيفر إلىٰ شيخه فلم يجده ، فيرابطه كي يأمن من شرهما ، أعان الله أصحاب الطريقة والجُرِيِّ بُطفيليّتهم من كيدهما .

لا قيد في اختيار واحدة منها ، لأنَّ لكل حالة طريقة إيصال ، فليدرِ كل أحد طريقته المخلوقة له .

وليعلم أنَّ « الرابطة » علىٰ ثلاثة أقسام :

قسم : التي زَبَرتُ ، وهي وقت قعوده[3] مستقبلاً القِبلة علىٰ هيئة خلاف التورك ، متوضئاً ، مستغفراً خمساً وعشرين مرة .

وقسم : وقت الخوف من الإزاغة إلىٰ ذنب ، فيرىٰ كأنه قاعد علىٰ كتفيه ويقول : ألا تستحي مني أنا حاضر وتزيغ القلب إلىٰ ما سواي.

وقسم : هي رابطةُ دوام ، كأنه في عينيه . طوبىٰ لمن حصل له هاتاكما .

---

(١) أي : شاه نقشبند محمد بهاء الدين البخاري رحمه الله تعالى .
(٢) أي : جلال الدين رحمه الله تعالى .
(٣) بعد صلاة المغرب .

□ قال الحمويُّ :

نَاجَيْتُ ضَمِيرَ خَاطِرِي يَا قَمَرِي
إنِّي أنَا فِيكَ وَأَنْتَ لِي فِي نَظَرِي

وَالشِّبْلِيُّ : نَسِيتُ اليَوْمَ مِنْ عِشْقِي صَلاَتِي
وَلا أدْرِي غَدَاتِي مِنْ عَشَائِي
وَذِكْرُكَ سَيِّدِي أَكْلِي وَشُرْبِي
فَوَجْهُكَ إنْ رَأَيْتُ شِفَاءَ دَوائِي

□ فَلْيَعْلَم الإخوان أنهم ـ قدّس الله أسرارَهم ـ قالوا بأن الركن الأعظم في الطريقة العلية هي : المرابطة .

واستدلُّوا بأنَّ مرابطة الصِّدِّيق رضي الله عنه تعميم جميع الأوقات ، لأنه سأل خائفاً ومستحياً من النَّبيِّ ﷺ : كيف أفعل ؟ إني أراك في أكثر أوقاتي ؟ فقال إنه ليس إياي ؛ بل روحانيتي ـ انتهى[1] .

□ ويقول قدس سره عند بيان آداب الطريقة العليّة :

منها : « الاتيان بالسنن المؤكدة ، خصوصاً قيام الليل ورابطة الأستاذ بحُكم ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة : ١١٩] إمّا بالجسم ، وإمّا بالخيال ، مع الأدب التامّ ، مع التلهف والتأسف علىٰ الصحبة ، وقصر النظر علىٰ القدم ، متجنباً عن النظر إلىٰ جميع الأشياء أمكن ما أمكن ، والاجتناب عن البدع ، كما قال الإمام الربّاني قدس سره : كل بدعة ترفع سُنَّة ، والاجتناب عن الرخص ، والجدل وإنكار المشايخ وسبُّهم وذمهم وتحقيرهم ، حتىٰ لو ادَّعىٰ واحدٌ ولاية فلا ينكر عليه ، والاستغناء

---

(١) مكتوبات الشيخ عبد الرحمن التاغي ، ص : (٢٦ ـ ٣١) المكتوب الثامن عشر .

عن أهل الدنيا ، والتواضع لأهل العلم والفقراء ، والاجتناب عن سوء الظن بالمؤمنين ، والاستغفار بعد الأعمال الصالحة علىٰ عدم الاتيان بحقها ، والافتقار إلىٰ الله إن أطاق ، وإلا فإلىٰ الأستاذ »[1] .

□ ويقول الشيخ عبد الرحمن التاغي ـ أيضاً ـ في رسالة له إلىٰ بعض إخوانه العلماء ، في بيان بعض آداب هذه الطريقة العلية ، ويوصيه بالتمسك بها ما نصه :

اعلم أن مدار الطريقة العليّة النقشبندية على الإخلاص ، والمحبة والتسليم ، كلما ازدادت ازداد صاحبها ترقياً وتقرباً ووصالاً ، وإذا تمت يحصل المرام ، وهو الإيمان اليقيني والغيب الشهودي .

١ ـ فالإخلاص : أقل مراتبه أن يرىٰ جميع أبواب الوصال مسدودة سوىٰ باب الأستاذ ، وهو قادر علىٰ الهداية بقدرة الهادي سبحانه وتعالىٰ .

٢ ـ والمحبة : أن يكون أستاذه أحب إليه من ماله وولده ونفسه .

٣ ـ والتسليم : أن يفعل ما يأمره الأستاذ من غير نظر إلىٰ أنه حسن أو قبيح ، أو جائز أو حرام ، فوضعت السادات النقشبندية لإتمام هذه الأمور آداباً :

الأول : الصحبة حسب ما أمكن ، وإلّا فمعنىً ، وهي الرابطة بحكم قوله تعالىٰ : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] وهي قسمان :

١ ـ إجماليٌّ وخيالي : وهي أن يلاحظ الأستاذ وكأنه معه دائماً ، حتىٰ في الخلاء وقضاء الحاجة والأكل والشرب ، والتكلم فيما بين الأحباب ،

---

(١) مكتوبات الشيخ التاغي ، ص : (٤٤ ـ ٤٥) بتصرف .

والدرس ، للاستعانة به ، وقبل النوم وبعده .

٢ ـ وتفصيليٌّ وصوري : وهو أن يغمض عينيه جالساً بعكس تورُّك الصلاة ، ويفرض عيناً في جبهته ويلاحظ صورة الأستاذ قبالة وجهه ، وشعاعاً من نور يخرج من جبهة الأستاذ إلى قلبه ؛ ووقته بين المغرب والعشاء .

والثاني : العمل بالشريعة ، مع الاجتناب عن البدع مطلقاً ، والرخص إن أمكن .

والثالث : محو وجوده في وجود الأستاذ ، بأن لا يرى نفسه متصفاً بصفة من صفات الكمال ، اختيارية كانت كالعلم وأمثاله ، أو خَلْقِية كالحسن وأمثاله ، ليكون غرضه التظلل بظله لا طلب كمال حتى أن لا تغره النفس بقابلية كمال .

والرابع : الذكر ، وأفضل أوقاته ما بين الطلوعين[1] وتيسر هذه الأمور بآداب :

الأول : اقتصار النظر على القَدَم ، لأنَّ مطلق النظر عند السادات كنظر النساء عند أهل الشرع ، حتى إنَّ بعض السّادات قالوا : النظر مطلقاً محرَّم ومخل بالنسبة[2] مطلقاً ، وهو الأصح عندهم ، وبعض منهم قالوا : ذلك حرام ومخل بالنسبة ، إن كان بشهوة ، وهي تعلق القلب بالمنظور أو فتنة ، وهي طلب تحصيله .

والثاني : التجنب عن محبة الدنيا وملاحظتها ، وطمع الثواب على الأعمال الصالحة ، لأنَّ محبة الدنيا منافية لمحبة الله تعالى ، وطمع

(١) طلوع الفجر وطلوع الشمس .

(٢) أى : مخلٌّ بانتسابه إلى طريق القوم .

الثواب مخل بها ، لأنه من حظوظ النفس .

والثالث : الاستغفار بعد الصلاة المفروضة ثلاث مرات ، أو خمس مرات ، أو خمس عشرة مرة ، أو خمس وعشرين مرّة ، على ظنٍّ عدم الاتيان بها كما ينبغي ويليق بعظيم شأنه وكبريائه تعالى ، فتكون ذنباً ، فلا بُدَّ من الاستغفار منه ، ولا يلزم مِنْ ظنٍّ أنها ذنب تَرْكُها ، إذِ التكليف بها يأتِ كل وقت ، فلا بُدَّ أن يقوم المكلف كل حين للاتيان بها ، فإذا قام إليها ولم يأت بها كما هو مكلف ، أي : بصفة الكمال يلزم الاستغفار بالنياز[1] والتضرع لجنابه تعالى وتقدَّس ، كالعبد الذي يأمره السيد دائماً بالخدمة ، وهو لا يقدر على الاتيان بحقها ، فيتضرع بالنياز إليه فيعفوه ، وهكذا على رجاء أن تقع في المرة الثانية ـ مثلاً ـ موقع القبول لديه ، فإذا رآه لأشياء استغفر وقام أخرى ، وبعد كل الأعمال الصالحة هكذا ، سيَّما بعد درس الفقهاء ، لأنَّ العلم علم الله ، وأنت ترى لك وجوداً لظن أنك عالم ، فيسري لأمراض مضرة بك وبسعيك في الدرس والمطالعة!

والرابع : أن لا تسأل من عالم تجده ما تعلم ؛ بل إذا سألته فاسأله ما لا تعلم[2] .

□ □ □

---

(١) اي : بالتألم والتحسر

(٢) مكتوبات الشيخ التاغي ، ص . (٤٥ ــ ٤٧) المكتوب الثالث والعشرون

الفصل العاشر

□ يقول شيخ الشريعة وبرهان الحقيقة ، الفاني في الله ، والباقي بالله الشيخ « فتح الله » من كبار السادة النقشبنديين في تركيا ، وخليفة الشيخ عبد الرحمن التاغي ، من ولاية بدليس ، في جواب لسؤال ورد عليه من بعض تلامذته العلماء :

« ... وما سألتم من مسألة الرابطة فقد قال حقي أفندي في كتابه المسمى بـ « معرفَتْ نامه »[1] في القسم الثالث من النوع الرابع ، الكائن في بيان الطريقة النقشبنيدية ، القسم الثالث : الرابطة القلبية بأن يربط المريد قلبه بأستاذ صاحب التربية الكثيرة الواصل إلى مقام المشاهدة وتجليات الأسماء والصفات »[2] .

□ ويذكر الشيخ فتح الله ـ أيضاً ـ في رسالة أخرى إلى أحد محبيه من العلماء يبين فيها بعض آداب الطريقة النقشبندية بقوله :

« إنَّ المدار على الملاقات والصحبة الصورية إن أمكنتا ، وإلّا فعلى المراسلات كي لا تقع الغفلة التامة والفتور في الرابطة ، فيا أخي اعلم : أنَّ الحكمة في ظهور الأحوال والأنوار ازدياد الإخلاص والمحبة بالطريقة العلية النقشبندية ، والسادات الكرام ـ قدس الله أسرارهم العليّة ـ وإلّا فالمدار على السير الإجمالي ، المبني على التعلق بالذات المقدسة ، المجردة عن اعتبار الشؤون والصفات والأفعال بواسطة الرابطة الحُبيّة

---

(١) كلمة اعجمية تعني : رسالة المعرفة

(٢) مكتوبات الشيخ فتح الله الورقاني ص (٧)

للمرشد حتى يَحصل الحضور التامّ المعبر عنه بالشهود الذي هو مقام الإحسان المشار إليه بحديث :

« أنْ تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تَرَاهُ »[1] .

فإنْ حصل هذا فهو المقصود الأسنى والمطلوب الأعلى ، سواء حصلت المكاشفات والتنويرات أمْ لا ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] والكينونة :

١ ـ صورية : تحصل بالملاقات والصحبة ، الصوريتين .

٢ ـ ومعنوية : تحصل بالرابطة الحبيّة ، قال الشاعر :

مَتَــى مــا تَلْقَــى مَــنْ تَهْــوَى دَعِ الــــدُّنْيـــا وَأَهْمِلْهـــا

لكن حصول الأحوال وظهور الأنوار مع الحضور والرابطة نافع جداً ، بشرط عدم الاغترار بهما في البداية .

□ ويقول ـ قُدِّسَ سِرُّه ـ في جواب سؤال من أحد محبيه : وصل إلينا عزيز مكتوبكم ، مفيحاً رائحة المحبة والتقيد بما هو المقصود الأعظم ، من كسب المعرفة بالله تعالى ، ودفع الأعراض النفسانية ، ففرحنا بذلك غاية الفرح ، وحمدنا الله تعالى على ذلك ، لأنه المقصود من خلق الثقلين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] أي : ليعرفون . (كما في تفسير الخطيب) فعليكم بالسعي التامّ في الرابطة والذكر بقدر الإمكان ، لأنهما الركنان الأعظمان في طريق الوصول إلى الله تعالى ، عند السّادات الكرام ، قدّس الله أسرارهم العليّة[2] .

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (٥٠) ومسلم ، رقم : (٨) .

(٢) مكتوبات الشيخ فتح الله الورقانسي ، ص : (٥٤ ـ ٥٦) بتصرف .

□ ويكتب الشيخ فتح الله ـ قُدِّس سِرُّه ـ بأمر شيخه الشيخ عبد الرحمن التاغي إلى الشيخ محمد سامي الأرزنجاني ، يوضِّح له ماهية غاية الطريقة العلية النقشبندية ، وكيف أنها أقرب الطرق إلى الله تعالى ، لأنها أبعد الطرق عن البدع والمخالفات الشرعيَّة ، ولأنَّ القائمين عليها كانوا ولا يزالون ـ والحمد لله ـ من أساطين العلماء وجهابذة الحكماء بقوله قدَّس الله سِرَّه :

« اعلم أن المقصود من وضع الطريقة العلية النقشبندية ـ قدس الله أسرار ساداتها الكرام ـ حصول المحبة الذاتية لتحصيل الإخلاص في العمل ، حتى يكون جميع الأعمال ؛ بل الحركات والسكنات والأقوال ؛ بل المزاح لله ، من غير ملاحظة منفعة دنيوية أو أخروية ؛ بل من غير ملاحظة نحو ترقٍّ أو وصول ، وهذا المقصد العالي لا يحصل إلَّا بمتابعة الشريعة المصطفوية ـ عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريَّاته وأصهاره وأنصاره أفضل الصلاة والسلام والتحية ـ من غير شائبة نحو بدعة أو رخصة ، وطرد الغفلة بالكلية ، حتى يكون سالك هذه الطريقة في نومه ويقظته ، وخلوته ، وجلوته ، وملاقات الأحباب والأغيار ، والغضب والسكينة ، والجوع والشبع ، وكل الأسباب التي تورث التفرقة ، جامع القلب ، بحيث لا تحرِّكه رياح الفتن والتفرقات ؛ بل يكون جمعه في التفرقة أكثر ، وعند المصيبة أشدّ ، فمن جهة وجوب المتابعة يجب عليه الاجتناب من كل مُحَرَّم ومكروه ؛ بل خلاف الأولى ـ أيضاً ـ والامتثال بكل واجب وسُنَّة بقدر الإمكان في الحال والمستقبل ، والتوبة بشروطها ، مع الاستغفار فيما مضى ، ومن حيث وجوب طرد الغفلة يجب عليه توقيف القلب ، إمّا على الرابطة الآتي تفصيلها ، وإمَّا على الذكر المتنوع على النوعين لفظ الجلالة والنفي والإثبات ، وإما عليهما

جميعاً ، بحيث يحصل له ملكة الحضور بغاية لو أراد طرده لما أمكنه من غاية تمكنه ، فلأجل هذا المذكور وضعوا آداباً لمن أراد الدخول في هذه السلسلة العليّة ، والتمسك بأذيال ساداتها الكرام ، ومن هذه الآداب : التفكر في الموت ـ مثلا ـ والمقصود منه هو كمال الانقطاع لا الخوف ، فإنَّ مبنى الطريقة العليّة على المحبة الذاتية ، كما تقرر عند أهلها ، وملاحظة الخوف من الدركات ينافي المحبة الذاتية للمبتدىء في السلوك ، فإذا تمكن في قلبه أن الإقبال إلى غيره تعالى من خطأ النفس العمياء ، وأنه اللائق بالإقبال في الذروة العليا : اشتاق قلبه إلى معرفة طريقة الوصال إليه تعالى ، والوصال إليه تعالى لا يمكن إلّا بالمحبة والمعرفة .

والحال أنَّ المحبّة تقتضي المجانسة والمؤانسة والرؤية ، والمعرفة في حقّه تعالى هي انكشاف الصفات بحيث يتقيد بمقتضياتها ، حتى يرى عند تصادف الذنوب شدة العقاب فينزجر ، وعند اقتراف الكبائر شدة الرحمة فلا ييأس ، وعند كثرة الأعمال شدَّة الفناء فلا يفتخر ، وهذه إنَّما تترتب على الإيمان الكامل الخارج عن التقليد إلى العلم ، وعن العلم إلى اليقين ، وعن اليقين إلى الحق ، وكيف يحصلان للمرء مع شدة غيرته عن الله تعالى وغفلته ، بحيث يكون ذكره على الغفلة ، وإيمانه على وجه التقليد ، فلابد له من شيخ كامل مكمل محبّ ، عارف حاذق في علامات الطريق وإشارات التحقيق ، كي يسلك المريد معه ، وبتبعيته تحصل له المحبة والمعرفة ، ولا بُدَّ من محبة هذا الشيخ والتقيد به المجازيين ، كي يقتدر أن يطير معه إلى المحبة والمعرفة الحقيقتين ، فلأجل ذلك وضعوا من الآداب « الرابطة » وهي في الحقيقة تعلق القلب بالأستاذ ، بحيث يتمكن من ترك مشتهيات نفسه بمجرد الإشارة من الأستاذ ، أو بمجرد

العلم بما يرضاه على سبيل الجذبة والمحبة التامّة ، من غير شائبة رياضة أو تشوش قلب ، والمحصل لهذا التعلق كيفيات ، والمقصود منها : أن تحضر أستاذك مع غاية العظمة والمهابة ، وتبقى في خوف الردِّ ورجاء القبول ، حتى يكون نومك كنوم المريض القلق من غاية الاضطراب والاستمداد ، لا فيه الأمن من الرد حتى يستريح ، ولا الجزم بالرد حتى ييأس . . . إلى أن يقول قدس سره :

ومما يعد من « الرابطة » المعنوية أن يرى أستاذه في الطريق معه ، وفي الأكل معه ، وعند مصادمته ذنباً معه ، ويما يهم من « الرابطة » عند رؤية ما يعجبه من المياه والخضروات ، والدُّور المزينة والثياب الجميلة والخيول ، بأن يقول : ليت الأستاذ كان حاضراً على هذا الماء ، وفي هذه الخضروات ، وفي هذه الديار ، فنتشرف بصحبته ، لأن الصحبة تموج في هذه الثلاثة المذكورة أكثر ، وليته يكون لابساً لهذه الثياب الجميلة ، أو راكباً على هذه الخيول ، فيظهر جماله وجلاله للعقول القاصرة ، فيندفع بهذه الرابطة الاغتباط والحسد المنافيان للطريقة العلية »[1] .

□ اقتضت المناسبة أن أنقل رسالة أخرى للشيخ فتح الله الورقانسي ـ الذي قيل فيه : لو احترقَتْ كتب الفقه الموجودة كلها لكان باستطاعته بإذن الله أن يعيد كتابتها ارتجالا واستظهاراً ـ رسالة في بعض آداب الطريقة النقشبندية ، حتى أشير من خلالها إلى دقة آداب هذه الطريقة ، وموافقتها للسُّنَّة السَّنِيَّة ، وتبعية أصحابها والقائمين عليها آثار المصطفى ﷺ ، والتمسك بالشريعة الغرّاء .

---

(١) الكلمات القدسية للسادات النقشيّة ، ص : (٢٨٠ ـ ٢٨٥) بتصرف .

وكان جُلُّ همهم نشر الدَّعوة الإسلامية ، وتعاليم النَّبيِّ ﷺ بين الأنام ، وكانوا ـ قدَّس الله أسرارهم ـ قد بلغتِ الشفقة بهم على عباد الله ، وعلى أمَّة سيدنا محمد ﷺ : أنْ قَدَّموهم على أهليهم وذويهم ، فيقول قدِّس سره :

اعلم أنَّ مدار الطريقة العليَّة النقشبندية ـ قدس الله أسرار ساداتها الكرام ـ على أمرين :

أحدهما : وهو الركن الأعظم الذي لا يمكن سقوطه كما صرح به ساداتها ؛ بل صرح شاه نقشبند ـ قدَّس الله أسراره العلية ـ بكفايته للوصول إلى مدارج الكمال ، هو امتثال الشريعة على وجه التجنب عن الرخص والبدع ، بأن يتمثل جميع الواجبات ، ويجتنب جميع المحرمات والمكروهات ، ولا يرى في مكروه نسبة ؛ بل ولا في خلاف الأولى ـ أيضاً ـ لأنَّ هذه الطريقة العلية خالية عن ترهات الصوفية والشطحات والطَّامَّات ، مع أنَّ مبناها المحبة والغيرة ، وهما كثيراً ما يوقعان الإنسان في الفتن وخلاف الشرعيات ، لأنَّ مقتضاهما السُّكْر وعدم رؤية النفس وما ينفعها ، وكثيراً ما يغلبان على الشخص وينسيانه حدود الشرع ، والحال إن التجاوز من حدود الشرع مناف لهما فلأجل ذلك كان حملها أثقل الأحمال ، وخاف من حملها السموات والأرض والجبال ؛ بل استعاذ من شرِّ المحبة وفتنها سيد المخلوقات ؛ بل كثيراً ما ترى المحبة [هيجانية] في الأقوال الغير اللائقة ، والحركات الغير المستقيمة ، والعقائد المخالفة لآراء أهل السُّنَّة والجماعة ؛ بل كثير من الجهلة يحسبون ما فيه بعدٌ من الله ورسوله قرباً ، ويجعلون وجدانهم شاهداً على ذلك ، ويقولون : إنا نرى النسبة القوية بحسب وجداننا في مشربنا ، فياليتهم تركوا وجدانهم لوجدان الشارع ﷺ ، وياليتهم سعوا حتى تكون

جذبتهم خارجة عن الوجدان ، ثابتة على حدود الشرع ، لأنَّ الجذبة إذا اخطأت وعلم صاحبها أنه ذو جذبة وهو على خلاف الحدود الشرعية ، فردُّهُ إلى الطريق المستقيم أصعب من تسليك مائة غافل فيها ، فالاحتياط الاحتياط ، والحذر الحذر ، من توسيط الوجدان والمصلحة في الطريقة لنفسه ، أو للإرشاد لغيره ، اللهم إلّا أن ينص عليه الشارع نصاً صريحاً ، فهو خارج عن البحث ، وإلّا فكيف يجوز ارتكاب مكروه ، فضلاً عن محرَّم محقق ، لأجل مصلحة موهومة يمكن أن تترتب عليه؟ وأن لا تترتب عليه .

اللهم اهدنا إلى الصراط المستقيم ، صراط النَّبيِّ والصحابة ، واحفظنا من تسويلات أنفسنا ومن خرافاتها ، فإنها لا تقدم على شيء إلّا أن ترى فيه حظها ، فلولا الحدود الشرعية ـ جزى الله عنا شارعها ما هو أهله ـ لأغوتْنا ، ولزخرفَتْ ما هو السُّمُّ القاتل بالحقيقة في أعيننا بصورة العسل ؛ بل وأحلى من السكر ، فالواجب على كلِّ طالب للطريقة العليَّة النقشبندية صادقاً في طلبه ، جازماً على مقصده ، أن يصحح أولًا عقيدته على موافقة رأيَ إمامَي العقيدة الشيخ أبي الحسن الأشعري ، والشيخ أبي منصور الماتريدي ـ نوَّر الله روحهما وأفاض علينا من بركاتهما ـ ولا يلتفت إلى خلاف ما هما عليه من الأقوال الشاذَّة للفقهاء والمحدثين والمفسرين ، والمتصوفة والعارفين ، كائناً صاحب ذلك القول الشاذ من كان ، إلّا أن ينص محققو الشرع على ترجيح خلاف ما هما عليه في جزئيات المسائل ، لأنهما هما اللذان تلقتهما الأمة بالقبول ، وأسقطت الأئمة المعتبرون غيرهما عن الاعتبار في العقيدة ، لاسيما إذا كان الغير من المتصوفة الذين كانت بضاعتهم التأويل للآيات والأحاديث ، بمقتضى المحتمل للخطأ كثيراً ، كما نص على هذا محققوهم ـ أيضاً ـ قدس الله

أسرارهم وجزاهم الله خير الجزاء ، حيث ينبهوننا على عدم الاعتبار بكشوفهم ولم يتحاشوا عن ذلك ، لأنَّ غرضهم هو الله تعالى ، وقد جعلهم الله هداة للناس ، فخافوا من الله أن يتبدلوا بالغواة ، ولأنَّ كل علم يؤخذ من أهله ، لأنَّ الله تعالى قسم العلم بين عباده ، فمنهم جعله الله معتبراً في العقيدة غير ملتفت إليه في غيرهما ، ومنهم من جعله الله معتبراً في الشرع غير معتبر في غيره ، ومنهم من جعله الله معتبراً في التصوف غير معتبر في غيره ، بل صرح ابن حجر بأنَّ ابن الجزري مقدَّم في التجويد على أمثال إمام الحرمين وأبيه الشيخ محمد الجويني ، مع أنه قيل في حقهما : لو كان نبيٌّ في هذه الأمة في وقتهما لكان هما ؛ كيف لا ولا يوجد الخرزات التي هي أدنى الأموال في دكان الجوهريين الذين يبيعون الدرر واللآلئ !

□ ثم بعد تصحيح العقيدة يتعلم أحكام الفقه على مذهب واحد من الأئمة الأربعة ـ قدس الله أرواحهم ونوَّر أضرحتهم ، وأسلكنا مسلك هداهم وسيرتهم ـ ويختار الأصح من الأقوال في ذلك المذهب ، لأنَّ العمل بغير الأصح غير جائز ، كيف لا والعمل بالرخصة القوية المعتبرة في هذه الطريقة غير جائز ، فأين يبقى العمل بالضعيف الغير المرضي [والمقصود بالرخصة هنا الفتوى الضعيفة ، لا الرخص الشرعية ، كرخصة قصر الصلاة في السفر مثلاً][(١)] .

□ ثم بعد التصحيح والتعليم المذكورين : يشرع في تصفية القلب لتحصل له المحبة الذاتية ، الموجبة للإخلاص في العمل ، فإذا وقعت له حال أو جذبة في أمر ، فليوازنهما بالعقيدة والشريعة ، فكلما وافقهما

---

(١) ما بين الحاصرتين من إضافة المؤلف .

فيلفرح به ويستمر عليه ، وكل ما خالفهما فليتركه ويستغفر الله عليه ، وليعلم بأن تلك الجذبة والحالة ليستا من الله ؛ بل من تسويلات النفس والشيطان ، والاستدراج الذي هو أشد الخذلان ، ولو شهد على حقيقتهما ألف رؤيا وألف كشف وألف وجدان ، بل ولو ظنَّ أنه جاء إليه ألف ملك وبشروه بها .

ولا يفتح عليه باب التأويلات ورؤية المصالح والقياس ، لأنَّ أبوابها انسدت ، فالمُئوِّل هو الذي أوله المجتهدون ، وكذلك القياس والمصلحة ، ولسنا أهل الاجتهاد ، لأنَّ الاجتهاد قد انقطع عند ختم أربعمائة سنة من الهجرة ، كما جزم بذلك الإمام النووي ، وابن الصَّلاح ، لا سيَّما والشيطان قد وقع فيما وقع للقياس ؛ نعم يليق أن يحسن ظنه بالأغيار بمجرد احتمال تأويل لا بالنفس ، لأنا مأمورون بتحسين الظن بالمؤمنين لا بأنفسنا ؛ بل الواجب علينا اتهام النفس في المأمورات ، فكيف في المنهيات ، فكيف لا والسّادات الكرام قد حذَّروا عن الرخص ، ولو كانت مجمعاً عليه ، والبدع ولو كانت مستحسنة ؛ بل نَصَّ « شاه نقشبند » في صريح كلامه بأن طريقته هي العمل بالعزيمة والصحبة ، وترك الرخص والبدع ، والمراد من الرخصة هو ما يكون خلافه أولى ، وهو العزيمة ، وإنما وضعت لأجل استراحة النفس ، ولو كان مجمعاً على جوازه ، إلَّا إذا كان من باب المعفوات عن النجاسات ، فإنهم لم يشددوا الأمر بالأخذ بالعزيمة ، لأنَّ التشديد يورث الوسوسة ، والمراد من البدع ما لم يكن في وقت الصحابة ، ولم يدخل تحت قياس ، ولم يجمع الأمة على تحسينه كالمنارات والرباطات ، وتأليف العلوم ، وبناء المدارس ، فإنَّ الأمة أجمعت على أن أمثال هذه من مهمات الدِّين ، ولم يكن من بديهيات أعمال الطريق كالتوجه والختمة والأوراد من

الجلال ، والنفي والإثبات ، على الكيفيات المخصوصات ، والآداب المعهودات ، لأنَّ تحسين الظن بالسادات الكرام المجتنبين عن البدع بالكلية ، المتسالكين في هذه الأمور بلا معارض ولا منكر ، يحملنا على أنَّ لهم دلائل في ذلك ، وإن خفي علينا تعيينها ، ولم يكن من العادات كالأكل بالملعقة ، ولبس السراويل ، وتبديل الثياب كلبس القباء والفراجية ، فإنَّ أمثال هذه من البدع العادية وهي غير مجتنب عنها ، وإن كان ترك بعضها أولى كما نصَّ على التفصيل الإمام الرباني قدس الله أسراره العلية في « المكتوبات » بل يكون من العبادات .

أو أسباب التقرُّب إلى الله تعالى ، ولو من حيث الكيفية ، كتعداد التسبيحات بالسُّبْحَةِ والأحجار ، وكتخصيص بعض الأوراد والسُّوَر ببعض الأوقات لم ترد به سُنَّة ولا كتاب ، كاختراع ورد له من عند نفسه ، وكذلك الأفعال التي يتقرب بها إلى الله ، ولم يكن لها أصلٍ ، كاعتقاد بعض الأعيان والأحجار والأشجار مباركاً ، والذهاب إليها لقضاء الحوائج !

ومنها : اختراع ألفاظ يعتادها جهلة المتصوفة ، ولم يسوِّغها الشرع على ظاهرها ، وإن أمكن التأويل ، لأنَّ مدارَ طريقتنا على ظاهر الشرع ، كما نصَّ على هذا الإمام الرباني ، كقولهم لشيوخهم : أنت أعطيتنا هذا ، أنت أخذت منا هذا ، أنت رفعت عنا هذه البلية ، أنت مالِكُ ديننا ودنيانا ! وإن كان لهم تأويل وهو : أنك أنت الواسطة في الرجاء من الله ذلك ، أو أنَّ الله فعل ذلك بنا لأجلك ؛ بل بعضها يسري إلى الكفر ، كقولهم في دعوى تسليمهم لأستاذهم لو أمرنا أستاذنا بسجدة لصنم لسجدنا ! والحال إن هذا تعليق للكفر ، وتعليق الكفر ولو كان بأمر محالٍ ، كقولهم : إن طار زيد إلى السماء كفرت ، كفر ! وكقولهم : أحلف بالله كاذباً ،

ولا أحلف بالشيخ كاذباً ؛ والحال أنَّ الحلف بغير الله إن كان بجهة التعظيم فهو كفر ، وإلّا فمكروه .

والمريد يخرج من الطريقة بقوله : خرجت منها ، وبارتكاب الكبائر اتفاقاً ، فاللائق بحاله أن يجدد طريقه في كلِّ عدَّة أيام مرَّة ، لأنه قلَّ ما يخلو المرء منهما ، وهذا في الغالب هو السبب لعدم الترقي ، مع أنه قال بعض الكبراء : من بقي في مرتبته ثلاثة أيام فالموت له أحسن »[1] .

□ □ □

(١) الكلمات القدسية للسادات النقشية ، ص : (٢٨٨ ـ ٢٩١) بتصرف .

الفصل الحادي عشر

□ كتب جدي الشيخ «أحمد الخزنوي» قدس الله سِرَّه ، إلى أحد تلاميذه يحثه على العمل بالرابطة ، وأنها أهم الأركان في الطريقة العليّة النقشبندية ، وأنها ليست مقصودة لنفسها ؛ بل وسيلة إلى الحضور ، وطرد الغفلة عن القلب ، فيقول بعد الحمد لله ، والصلاة والسّلام على رسول الله ﷺ :

« أمرناك بالرابطة الخيالية ، وهي : أن يلاحظ الأستاذ كأنه معه دائماً ، حتى في وقت الخلاء والأكل ، والتكلم بين الأحباب ، وملاقاة الأغيار ، وعند أول النوم ، بأن يحضر الأستاذ عند رأسه ، وعند الانتباه من النوم ، وعند أول الدرس وختمه ، فيلزم المحافظة عليها بقدر الإمكان ، ولا يلتفت إلى ما تحبه النفس .

قال حضرت[1] : قدّسنا الله وإياكم بأسراره : إنَّ من عادة النفس من حيث عداوتها : أنَّ الأستاذ إذا أمرها بتعليم ثان أن تبقى تعلقها بتعليمها الأول ، لأنه ما بقيت فيه منفعة تامَّة ، ولا تحب تعليمها الثاني ، لأنها ترى الفائدة فيه . . إلى أن قال رحمة الله عليه : قال الغوث الأعظم[2] : عليكم بالرابطة ؛ وكان يوصي بها كثيراً ويقول : أول ما يبدىء به غالباً من

---

(١) هو شيخه محمد ضياء الدين النقشبندي الملقب بـ« حضرت » .

(٢) هو الشيخ صبغة الله الأرفاسي رحمه الله تعالى .

أحوال المريد حصول الرابطة . ونقل الغوثُ عن بعض المشايخ أنه كان يقتصر في تعليم المريدين على الرابطة ؛ وكان رضي الله عنه يستحسن ذلك منه ، قال الأستاذ الأعظم[1] قَدَّسَ الله سِرَّه : فائدة الرابطة إزالتها للخطرات .

وقال الإمام الربّاني قُدِّسَ سِرُّه : إنَّ الرابطةَ من جملة الوسائل الموصلة إلى الحضور في عبادة الله ، والمزيلة للغفلة والخطرات . والوسائل لها حكم المقاصد . وقال ـ أيضاً ـ: قد حصل لنا بالتجربة وعن قوم أكثر من عدد التواتر : أنا إذا تصورنا الرابطة انتفت عنا الأغيار كلها ، وبقي هذا الغير وحده ، فنعرض حينئذٍ عنه .

والرابطة مثل إنسان له أعداء ، فيتودد إلى بعضهم ويسلط على باقيهم ، فإذا أهلكهم لم يبق إلّا واحد فيقدر على إزالته ؛ فالرابطة ليست مرادة لعينها ؛ بل مرادة لغيرها ، لأنها من الوسائل الموجبة لدفع الخطرات ، ونفي الغفلة المفيدة للمطلوب ، والوسائل لها حكم المقاصد ، وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب[2] .

□ وقد كتب ـ أيضاً ـ رسالة إلى المُلاّ عبد اللطيف ، إمام بلدة عامودا وعالمها الجليل ، خليفته المشهور بالعلم والورع ، حيث يأمره بالرابطة الخيالية والعمل بها ، وبالرابطة الصورية ويوصيه بمتابعة الشَّريعة المحمَّدية ، فيقول :

« المعروض أنه أُتْرُكِ الذكرَ القلبي وكذا أُترك الأوراد بالكلية إلّا خمسة آلاف على القلب ، واشتغل من الآن بالرابطة الخيالية ليلاً ونهاراً ،

---

(١) هو الشيخ عبد الرحمن التاغي رحمه الله تعالى .

(٢) المكتوب الخامس ، صفحة : (١٠ ـ ١٣) للشيخ أحمد الخزنوي رحمه الله تعالى .

والرابطة الخيالية هي أن يتصور الأستاذ كأنه معه دائماً ، حتى في وقت الخلاء ، وعند النوم ، وعند الكلام والتكلم ، إلخ . . .

واشتغل بالرابطة الصورية كثيراً ـ أيضاً ـ زائدة على الوقت المعهود ، ونوصيك بالإصلاح بينك وبين الله ، والثبات على متابعة الشريعة ، إذ أنّ ذاك هو المطلوب والمقصود »[1] .

□ □ □

(١) مكتوبات الشيخ أحمد الخزنوي ، ص : (١٣٥ ـ ١٣٦) . المكتوب الرابع والخمسون .

الفصل الثاني عشر

□ وفي رسالة للشيخ محمد معشوق قدس سره ، حفيد الشيخ عبد الرحمن التاغي ، ومن كبار علماء ومشايخ تركيا في ولاية بدليس ، وخليفة الشيخ أحمد الخزنوي ، كتبها إلى بعض العلماء في جواب عن سؤاله عن بعض آداب الطريقة العلية النقشبندية فيقول بعد حمد الله والصلاة على رسوله ﷺ .

« .. فإلى الأخ المتين الملا محمد أمين ، صانه المولى عن كل ما يشين : إنه وصل إلى الفقير مكتوبكم المحتوي على أسئلة ليس الفقير قابلاً لجواب أمثالها من عنده ، بَيْدَ أنَّ حسن ظنكم بالفقير ساقكم إلى السؤال عنه ، كأنكم استمطرتم سحاباً هامراً ، وليس عندنا ما يقنعكم من الجواب ، غير ما استنبطنا من زبرات[1] السّادات ، والتقطنا من صحبة القادات ـ متَّعنا الله تعالى بأنفاسهم القدسية ـ وهو أنّ المقصد الأعلى والمطلب الأقصى من جميع الآداب : حصول المراقبة التي هي مخ كل عبادة ، ونهاية كل رياضة ، والبواقي من الأذكار والأوراد ،

والرابطة كلها مبادىء للمراقبة ، وللمبادىء حكم المقاصد .

فمهما حصلت المراقبة المقصودة لذاتها ، عُدِلَ عن الرابطة بأنواعها ، وعلم ـ أيضاً ـ أنّ ما حصل له كان ـ أيضاً ـ بهمة مرشده الفاني

(١) أي : من كلمات وأقوال .

في الله ، والباقي بالله ـ حسب ظنه ـ ومع ذلك وإنْ حصل له تلك الحالة لا يترك الرابطة في سائر الأوقات ؛ بل يداوم عليها للترقي بأنواعها حسب أوقاتها ، كما هو المعلوم من التفاصيل للرابطة والمراقبة في زبرات السادات الكرام ـ قدس الله أسرارهم العلية ـ لأنَّ الرابطة أهم آداب سائر الطرق ، حتى إنَّ كثيراً من السادات حضروا الأمر فيها ، وكثيراً من السالكين وصلوا إلى ما وصلوا بمجرد الرابطة .

وقال غوثنا الأعظم قدس سره في « المنحة القدسية » المئة والتسعة عُقَدُ السالك وشبهه لا تنحل بدون توسط الشيخ ، وبعد الكمال يستغني في انحلالها عنه ، إمّا بالأخذ عن المبدىء الفيّاض ، وإما بسَوْق الله تعالى من يحلها له عند الاحتياج ، ومع ذلك الاستغناء ، تنفعه الرابطة إلى التفوق . اهـ .

وكما قال الأستاذ[1] قدس سره ناقلاً عن أستاذه قدس سره (طريقة ما رابطة است)[2] .

وقال : إنَّ « الرابطة » للمريد كالزجاج البللور لأهل الرصد ، أي : كما أنَّ أهل الرصد يرون الفلك البعيد قريباً ، كذلك المرابط يرى الحقيقة البعيدة قريبة . اهـ .

هذا وأمّا ما كتبتم من إذن الشيخ سَيْدا ـ نوَّر الله ضريحه ـ لمنتسبيه لزيارة العلماء العاملين ، والاستفادة من أرباب أهل الطريقة ، مما يدل على علوّ شأنه وكمال عرفانه وخلوص مزيته ، لأنَّ هذا كان مسلك السادات الكرام ، الذين همهم إرشاد المؤمنين على يد من كان ؛ بل

---

(١) هو الشيخ عبد الرحمن التاغي رحمه الله تعالى .
(٢) يعني : طريقتنا الرابطة .

يرجحون ما فيه نفع المريدين ، وما كتبتم لنا مما عرض عليكم من كثرة النسيان ، فنحن مثلكم فيه ، لعله من ضعف القوى المفكرة بالشيخوخة ، أو من كثرة العوائق وتراكم الشواغل ، أيقظنا الله تعالى وإياكم من الغفلات ، وصاننا وإياكم عن كلِّ الملمات ، ووفقكم الله تعالى إلى ما فيه الخير[1] .

□ □ □

(١) مكتوبات الشيخ فتح الله الورقانسي ، ص : (١١٧ ـ ١١٨) .

الفصل الثالث عشر

□ يذكر الشيخ حسين الدوسري في رسالة له مطوّلة في بيان « الرابطة » عند السادة النقشبندية ، قدس الله أسرار سادتها ، وكيفيتها وحكمها ، وكيف أنها من الأمور اللازمة للسالك في سَيْره وتسليكه إلى جناب الحقّ سبحانه وتعالى ، ففصَّل وبيَّن ذلك بأسلوب محكم وحكيم ، ووضع النقاط على الحروف ، ولم يهدأ حتى كشف اللثام عن محاسن أسرارها ، فبيَّن منفعتها ، وردَّ على من قال بمضرتها وحرمتها ، وكل ذلك بأسلوب وأدلة عقلية وعلمية دقيقة ، تخفىٰ على كثير من الناس ، فجزاه الله عنّا الخير الكثير ، ولتمام الفائدة وتعميم الانتفاع سأثبتها في هذه الصفحات بشيء من الاختصار المفيد ، وبيان بعض الإشارات المبهمة في تحقيق الرابطة :

« اعلم أيها الأخ وفقك الله لسلوك صراطه المستقيم ، وعصمني وإياك من الشيطان الرجيم : أنَّ « الرابطة » عبارة عن تعلق القلب بشيء لشيء على وجه المحبة ، وهذا التعلق تارة يكون محموداً ، وتارة يكون مذموماً ، وتارة يكون مباحاً ، لأنه لا يخفى إما أن يكون مأموراً به أوْ لا .

فالأول : محمود ، كحب الله ، وحب رسوله ﷺ ، والحب في الله ، وحب ما يقرِّب إليه .

والثاني : هو أن يكون منهياً عنه أوْ لا ،

فالأول : مذموم ، كحب المحرمات والمكروهات ، وإن لم يترتب على المكروهات عقاب ، لأنه يترتب عليها عتاب .

والثاني : المباح ، كحب الإنسان أهله وولده ، بالطبع الجِبِلِّيِّ ، الذي لا انفكاك عنه لأحد ، فقد شمل هذا التقسيم الأحكام الخمسة ، فإنَّ المحمود : يندرج فيه الواجب والمندوب ؛ والمذموم : يتضمن الحرام والمكروه . والمباح معلوم دخوله تحت غير المنهي عنه . وهو قولنا أوَّلًا ، فتعلق القلب حاصل لكل إنسان ، فلو تنبه المنكر لَعَلِمَ أنَّ ما ينكره عين ما يستحضره ، وأنَّ الذي يجهله هو الذي يفعله ؛ بل الرابطة التي ينفي ثبوتها مع فعله إياها ، فيه من إساءته الأدب مع الله تعالى ما لا يمكن جحده ، ولَعَلِمَ أنه يتأكد عليه أن يعمل عملاً يزيل عنه هذا البلاء ، الذي أهلكه من حيث لا يشعر ، لشدة سكره في غفلته ، وذلك أنه إذا كبَّر تكبيرة الإحرام سرح في أودية الأفكار والأوهام ، وأعرض عن ربه ونسيَ نفسه ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : ١٩] . واشتغل إمَّا برابطة وقفه ، أو ملكه ، أو حرفته ، أو زوجته ، إن كانت نفسه مفتونة بها ، أو ولده ، أو تقرير مسألة يلقيها إبليس إليه ليخرجه من صلاته مفلساً ، أو مخاطبة من يرتجى منه زكاة أو صدقة ، فيقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة : ٤] وهو مقبل على معبوده الشهودي ، ورابطته التي هي نصب عينيه ، ويستمر على هذه الحالة حتى يسلِّمَ ، فإذا سلَّم التسليمة الأولى شرع بالإنكار على الرابطة التي يفعلها العلماء العارفون ، في وقت مخصوص ، ليحصل بواسطتها انتفاء الغفلة ، حتى يقبلوا على ربهم في صلاتهم وذكرهم بقلب حاضر ! وقد ورد عليَّ سؤال من بعض المعترضين وهو : أنَّ الرابطة التي تأمرون المريد بها لا تخلو بقرينة الأمر بها ، من أن يكون حكمها الايجاب أو الندب ، وهما أمران شرعيان ، لا بُدَّ لهما من

دليل ، والأدلة : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وغيرها من الأدلة راجع إليها ، فما الدليل على ندب الرابطة أو وجوبها ؟

وأيضاً : لا شك أنَّ النبي ﷺ شيخ الصحابة ، لأنهم أخذوا عنه الأذكار وغيرها ، فلم يبلغنا أنه أمرهم بتصور صورته التي هي أكمل الصور الإنسانية ، فلو أمرهم لنقل ، لا سيما إذا كان ذلك واجباً ، لأنَّ الواجب مما تتوافر الدواعي على نقله . انتهى .

□ فأقول : الجواب عن هذا السؤال من وجوه :

الأول : إنَّ الرابطة التي نأمر المريد بأمر السّادة النقشبندية الذين هم .

قال الشهاب ابن حجر في « الفتاوى الصغرى » عن طريقتهم : إنها الطريقة السالمة من كدورات جهلة الصوفية مندوبة ، لأنها من الوسائل الموجبة لدفع الخطرات ، ونفي الغفلة ، والوسائل لها حكم المقاصد ، والأمر الذي لم ينه الشرع عنه يسوغ فعله ، إمّا على طريق الإباحة إن أدى إلى مباح ، أو الندب إنْ أوجب مندوباً ، أو الوجوب إن حصل واجباً لا يحصل بغيره ، فقد حصل لنا بالتجربة ونحن قوم أكثر من عدد التواتر : إنّا إذا تصورنا الرابطة انتفت عنا الأغيار كلها ، وبقي هذا الغير وحده ، فنعرض عنه حينئذٍ ، وهذا مثل إنسان له أعداء ، فتودد إلى بعضهم وسلطه على باقيهم ، فإذا أهلكهم عنه لم يبق إلَّا واحد فيقدر على إزالته فيزيله ، وهذا وجه ينبغي للمنصف أن يتأمله ، ولأن « الرابطة » ليست مرادة لعينها ، بل مرادة لغيرها .

الثاني : قولكم : لا تخلو بقرينة الأمر بها من أن يكون حكمها الإيجاب أو الندب ؟

أقول : لا نسلِّم أنَّ غير الشارع إذا أمر بأمر أن يكون حكمه الإيجاب أو الندب ، وأنَّ الإنسان قد يأمر غيره بفعل مباح لغرض مّا من الأغراض له أو للمأمور ، وقد يأمر الطبيب المريض بشرب بعض الأدوية ، فإن كان امتثال أمر الطبيب واجباً أو مندوباً ، فما نستعلمه من قبيله .

الثالث : قولكم : وهما شرعيان لا بد لهما من دليل .

أقول : هذا بناء على قولنا : إنّ الرابطة توصل إلى أمر مندوب ، وما أوصل إلى المندوب مندوب ، فالدليل موجود ؛ لا على قولكم كل مأمور به لا يخلو من أن يكون حكمه الإيجاب ، أو الندب . لما ذكرنا من أن غير أمر الشارع قد يخلو منهما ويكون لغرضٍ مّا .

الرابع : قولكم والأدلة الكتاب .

أقول : وهل يعزب عن الكتاب شيء ؟ وهو قد جمع كلَّ رطب ويابس ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] . والوسيلة بالأعمال الصالحة ، ولا تكون الأعمال صالحة إلّا بالإخلاص ، ولا يكون العمل خالصاً إلّا إذا خلا عن الشوائب ، وقد حصل لنا بالتجربة أنا إذا اشتغلنا بالرابطة خلت أعمالنا عن شوائب الغفلة ، والعمل في الغفلة غير معتد به ، لأنه يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها ، فهي من الوسائل الموجبة لزوال الغفلة مقصود ، وما أوصل إلى المقصود مقصود ، ومن لوازم زوال الغفلة الحضور ، وهو من أشرف الوسائل ؛ فالرابطة الموجبة لزوال الغفلة الموجب للحضور من أشرف الوسائل .

الخامس : قولكم : السُّنَّة .

أقول : وهل يُشَذُّ عن كلام النبيِّ ﷺ وتحت كل كلمة من كلامه من

بحار المعاني ما يتوصل به إلى خير ؟ قال ﷺ :

« إِنَّمَا الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى »[1] والأعمال بدنية وقلبية ، فالحركات والتصورات المباحة إذا نوى بها الإنسان الطاعة أو التقوّي بها عليها فله ما نوى ، ولو لم يدرك مراده ، فكيف إذا تحقق له حصول المراد ؟ ولا يخفى أنَّ قول الجائع للشبعان : أنت جائع ـ مثلاً ـ لا يوجب له جوعاً ، فكذلك قول المعترض : ما نرى صحة ما ترونه ما يوجب عدم صحة رؤيتنا ، فعليه أن يقول : ما تدعونه حقاً فأنتم وشأنكم ، ولا يسوغ له غير ذلك ، إن نصح نفسه .

السادس : قولكم : والاجماع .

أقول : قد أجمع أهل فن التصوف على عمل « الرابطة » وقرره منهم الجمُّ الغفير ، وهو عندهم طريق مشهور ، وإجماعهم على عمل في مذهبهم حجة يجب قبولها على من تَمَذهب بمذهبهم ، وسنورد أقاويلهم إن شاء الله ، ولا يسوغ لغيرهم الاعتراض عليهم بما لم يحط به علماً .

السابع : قولكم : والقياس ؟

أقول : قال الفقهاء : يسن للمصلي أن لا يجاوز بصره إشارته ، وذلك لأنه أجمع للهمِّ ، وأدفع للتفرق ، فكذلك « الرابطة » تستعمل لدفع الأغيار واستجلاب الحضور .

الثامن : قولكم : فما الدليل على ندب « الرابطة » .. إلخ ؟

أقول : الدليل يطلب من المجتهد لا من المقلِّد ، وإنما على المقلد تصحيح النقل ، فإنْ طلبتم دليلاً من كلام أهل الفن فسيأتي على أنه

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (١) ومسلم ، رقم : (١٩٠٧) .

لا يلزمه إيراد غير كلام النقشبندية ، كما أنه لا يلزمنا أن لو طلب منا نص لمسألة في الفقه[1] إيراد كلام غير الشافعية .

التاسع : قولكم لم تبلغنا . . إلخ .

أقول : لا يلزم من عدم بلوغه إياكم عدم ثبوته ، ولا يلزم من جهلكم به عدم علم غيركم به ، ولعله بلغكم وجهلتموه ، ومرَّ عليكم ولم تعرفوه ، وهل للصحبة معنى سوى انطباع صورة النبي ﷺ في مرآة القلب الذي رآه مؤمناً ، أو انطباع صورة الشخص المؤمن في ذهن النبي ﷺ ؟ ولولا ذلك لم يُعَدُّ في الصحابة من رآه النَّبيُّ ﷺ ، وهل أمراً أوضح من دعاء النبي ﷺ إلى مبايعته المستلزمة للرؤية المستلزمة لانطباع الصورة ، وإذا انطبعت الصورة في الذهن ، ظهرت لرائيها في مخيلته مهما تذكر المرئي شاء أوْ أبى ، ولو كان عدوّاً ، فاستحضار صورة النبي ﷺ وتخيلها الذي هو المراد بقولنا : تصورها محبة له ، واشتياقاً إليه ، لا يقول بمنعها إلَّا الذي لم يذق حلاوة محبة النبي ﷺ فالأمر بمستلزم شيئاً مستلزماً شيئاً آخر ، مَرَّ بذلك الشيء الآخر .

العاشر : قولكم لا سيما إذا كان واجباً .

أقول : لم يقل أحد من أهل التصوف بوجوب « الرابطة » ولا باستحبابها لذاتها ؛ بل لما توصل إليه من المحاب ، والمريد يُلَقَّنُ الرابطة وهو مَخَيَّر في فعلها وتركها ، فإن ظهرت له فائدتها تأكد عليه فعلها ، وإن تركها فقد ترك أدباً من الآداب ، هذا كله في البدايات ، وأما في النهايات فلا رابطة له سوى استغراقه في شهود من ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ

(١) الشافعي .

شيء ﴾ [الشورى : ١١] . فما هو صورةٌ تمثّل ، ولا تقابل ، ولا تقبل .

الحادي عشر : قدرنا مع هذا كله أنه لا دليل لنا ، ولا عمل بهذا العمل أحد قبلنا ، وإنما نحن عملنا لما نرى من فائدته ، فهل ورد فيمن تصور صورة محبوبه وتخيل أنه يقبل يده أو رجله ، أو يضعه على رأسه ، أو جبهته ، أو يعتنقه ويدخله في قلبه : نهيٌ من الكتاب أو السُّنَّة أو الإجماع أو القياس ؟!

وإذا تقرر عندنا أنه يحصل بواسطة الرابطة انتفاء الغفلة ، فالاشتغال بها من مهمات آداب الطريق ، إذ من المعلوم أنَّ زوال الغفلة مطلوب ، وهو مفتاح السعادات ، وأنَّ الحضور روح العبادات ، وزوال الغفلة لا يكون إلَّا بنزول رحمة الله تعالى على عبده ، ومن أسباب نزول الرحمة ذكر الصالحين ، وعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ، وذكرهم من لوازم محبتهم ، ومحبتهم فرض ، لقوله ﷺ : « .. وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ وَالْبُغْضُ ؟ »[1] ومحبتهم محبة الله لقوله ﷺ حاكياً عن الله تعالى :

« وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ »[2] .

وعداوتهم محاربة مع الله ، لقوله تعالى على لسان نبيه ﷺ :

« مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ »[3] .

فما استعمله الصفوة من عباد الله عين ما حكاه ﷺ ..

هذا ونحن لا نستدل للرابطة من دليل ، ودليل من قلدناه من العلماء

---

(١) أخرجه الحاكم : (٢/٢٩١) . ومعنى هذا الحب وهذا البغض : أن يكونا لله تعالى .
(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ : (٢/٩٥٤) .
(٣) أخرجه البخاري ، رقم : (٦١٣٧) .

كاف واف بالمقصود ، فالإنكار متوجه على الجنيد والجَيْلي والدسوقي ونحوهم ، الذين قرروا الرابطة بكيفياتها ، كما ستراها - إن شاء الله - في باب رابطة الأولياء ، عصمني الله وإياك من الإنكار ، ووفقنا لاتِّباع النَّبيِّ المختار ﷺ ، ومحبة الصَّادقين الأبرار[1] .

□ □ □

(1) مكتوبات الإمام الرباني ، الهامش ، ص : (٢١٨-٢٢٩) .

الفصل الرابع عشر

□ وذكر الشيخ حسين رحمة الله عليه - أيضاً - في رسالة أخرى ، وهو يوضح بأسلوب آخر مدى فائدة الرابطة :

« اعلم أيها الأخ أرشدك الله : أنَّ الرابطة من جملة الوسائل الموصلة إلى الحضور في عبادة الله ، والوسائل لها حكم المقاصد .

قال سيدي الحبيب عبد الله باعلوي الحداد في كتابه : « إتحاف السائل » : الحضور مع الله روح العبادات ، وهو المقصود منها ، وبه يعبأ المحققون ، والأعمال التي تصدر مع الغفلة ، يرونها إلى العقوبة والحجاب أقرب منها إلى المكاشفة والثواب ، فالرابطة تفيد الحضور ، والحضور يفيد رفع الحجاب ، ورفع الحجاب مطلوب ، وكل ما أفاد المقصود مقصود ، فالرابطة مطلوبة فقد هلك من لا رابطة له ، وكل إنسان له رابطة :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فرابطة رسول الله ﷺ دائمة .

ورابطة الأولياء والمريدين قوله ﷺ : « وَجَبَتْ مَحَبَّتِي .. إلخ »[١] .

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ : (٢/ ٩٥٤) .

وهذا أمر لا يدركه الإنسان إلّا بالذوق والوجدان ، فإنْ أحببت يا أخي أن تسلك سبيل الرحمة الهابطة ، وتكون لك التقوى مرابطة : فعليك بطريق الرابطة ، فإنها تعلق القلب ، وتعلق القلب بطاعة الله ورسوله منتج لمحبة الله ورسوله ، والرابطة يحصل بها زوال الغفلة ، وجمع القلب على الله ، وذهاب القسوة من القلب ، والخشوع ونزول الرحمة ، وكل ذلك يثمر المحبة ، فإنّي يا أخي قد حققتُ ذلك ، وأبصرت ربح من سلك هذه المسالك ، وتيقنتُ أنك غِرٌّ لم تدر ما هنالك ، أو مغرور تلقي نفسك في الإنكار الذي هو أفضح المهالك ، أفترى أني أصغي لتعذالك ، أو أميل إلى زخرف أقوالك ، أو يخفى عليَّ دقيق احتيالك ؟ هيهات ، هيهات !

فإن قال الأخ المنكِرُ ـ تاب الله عليه ـ: قد عرفنا على هذا القول : أن الرابطة تعلق القلب ، وهذا القول يمنعه ، والحب في الله واجب ، ومحبة الصالحين ثابتة ، لكن من أين لكم أن استحضار صورة رجل في الذهن ـ ولو كان من الصالحين ـ تحصل به هذه المطالب كلها ؟ وإن استحضاركم بسبب تعلق القلب وإنه جائز ؟

□ والجواب عن هذا من وجوه :

الأول : قولك : من أين لكم أنَّ استحضار صورة رجل في الذهن تحصل به هذه المطالب كلها ؟

أقول : إن هذه المطالب تحصل لنا بما ذكرناه ، كما حصلت لك أضدادها باستغراقك في معبودك الذي نبهناك عليه ، ولكنها : ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج : ٤٦] ألا ترى أنك إذا كبّرْتَ تكبيرة الإحرام اشتغلت برابطة التاجر الذي يعطيك زكاة أو صدقة ،

أو برابطة الحاكم أو الوزير [الذي نعدك بمنصب وعطية] أو برابطة أهلك ومالك ، أو بكلٍّ في ركعة أو سجدة ، وتنسى من أنت واقف بين يديه ، ولا تستحي منه ، وتنسى نفسك وتخرج من الصلاة ولا تدري أي شيء قلت ؟ أتنكر ذلك ، ما أراك تجحد ذلك ؟!

الثاني : قولك : إن استحضاركم بسبب تعلق القلب .

أقول : لا يخفى أن استحضار الشيء سببه تعلق القلب به ، وأهل هذا الفن مع تعلق القلب يتكلفون استحضار صورة محبوبهم ، ولا يحصل لهم إلَّا بالتكلف ، لأنهم دائماً يسعون في تطهير قلوبهم بإزالة ما سوى الله منها بواسطة الرابطة في غير وقت العبادة .

ومن كان شغله نفي ما سوى الله ، لا جرم أنه لا يستحضر أحداً إلَّا بسبب تعلق القلب مع التكلف للفائدة التي ذكرناها ، وأنتَ تشهد أنَّ سببه تعلق بالقلب ، ولا تكتموا الشهادة ، وذلك لأنك شديد الاعتناء بتحصيل مقاصدك ، فإذا كبَّرت للصلاة ظهرت لك صورها ، وصارت قبلتك التي تسجد إليها ، ونسيت ما سواها ، لتعلق قلبك بها ، واستيلائها عليه ، وانتقاشها في نفسك ، فإنه يحصل لك .

ويجوز لك استحضار هذه المثالب ، ونحن يحرم علينا السعي في حب هذه المطالب ، وأنت محقٌّ ، ونحن مبطلون ؟ أهكذا يكون الانصاف ، فما هذا إلَّا الاعتداء والخلاف !.

الثالث : قولك : إنه جائز .

أقول : من المعلوم أنَّ الأصل في الأشياء الحل ، ما لم تثبت الحرمة ، فكل شيء لم ينه الشرع عنه فهو مباح ، وفعله جائز ، فحركات الإنسان وتصوراته المباحة فعلها جائز ، فإن أوصلتْ إلى مندوب ففعلها

مندوب ، فالرابطة فعلها باعتبار الأصل جائز ، وباعتبار ما توصل إليه مندوب .

الرابع : عدم علمك بحصول مطالبنا ، لا يجوز لك سلبنا ولا الانكار علينا ، بما لم تحط به علماً ، كما لا يلزم من جهلك عدم وقوع مقصودنا .

الخامس : قد عُلِمَ وقُرِّرَ واشتهر أنَّ المصلي يُسَنُّ له النظر إلى موضع سجوده في جميع صلاته ، ويُسَنُّ للأعمى ومن هو في ظلمة أن تكون حالته كحالة النظر لمحل سجوده ، والمراد من ذلك جمع القلب والحضور وعدم التفرقة ، وهذا من أنواع الرابطة ، أفلا تجعل تخيل الرابطة كتخيُّل الأعمى النظر إلى موضع سجوده في جميع صلاته ، لحصول الفائدة ، فإن المقصد واحد ، إلَّا أنَّ أهل « الرابطة » يفعلونها في غير وقت الصلاة ، ليحصل لهم جمع القلب على الدوام ، وليتوصلوا بها إلى رابطة الصلاة ، وهي : « أنْ تَعْبُدَ الله كأَنَّكَ تَرَاهُ »[1] .

السادس : إذا عمل قوم بلغ عددهم التواتر عملاً وأثبت كل منهم فائدته وقرر منفعته ، فهل يجوز لأحد تكذيبهم ؟ مع استحالة تواطئهم على الكذب ! ومع أنَّ عيونهم عيون الناس أهل العلم والفضل ، وما أنت وعلمك بالنسبة إليهم إلَّا كفحام عند جوهري ، أو كمن يحفظ حروف الهجاء ليناظر بها الفخر الرازي ، فالأولى أنك تعترف لهم ، وإذا فاتتك صحبتهم لا تفوتك محبتهم ، وإذا لم تحبهم فلا تَسُبَّهم !

السابع : قد علمت أنَّ أحكام الشرع لا تثبت إلَّا بدليل ، وأن يكون نصّاً لا محتملاً ولا عامّاً مخصوصاً ، ككل بدعة ضلالة ، لما يلزم عليه

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (٥٠) ومسلم ، رقم : (٨) .

من الفساد ، إذ من البدعة ما هو واجب ، ولو تنزلنا وفرضنا أنَّ عمل « الزابطة » لا دليل لنا عليه ، وإنما فعلناه لما حصل لنا من الفائدة بالتجربة ، فالإنكار علينا من أي وجه وما دليله ؟! .

الثامن : وهو ضرب مثلٍ : أَمَرَ ملكٌ طبيبَهُ الحاذق الحكيم بمداواة أهل مملكته ، من أمراض غلبت على أكثرهم ، أضرها البطن ، حتى آلت بالأكثر إلى عدم القيام بالخدمة ، وكان الطبيب حكيماً ماهراً ، وعالماً راسخاً ، وعارفاً كاملاً :

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] فقال في نفسه : تنفيذ هذا الأمر من أهم المهمات وواجب الواجبات ، وتعليمه لمن يتأهل للقيام بعمله مُوجب لدوام الأجر والمثوبات ، وخير العمل ما نفع و« إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاثَةٍ »(١) أحدها : « عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ »(٢) .

فعمد إلى بعض المرضى ممن تَفَرَّس فيه ، وعرف أنه يكون أهلاً للقيام بهذه الوظيفة ، وتنفيذها على الوجه المراد إذا عوفي ، فعالجه ، حتى عوفي ، ثم علَّمه الطِّبَّ والحكمة ، وأخبره بالأدوية وخواصِّها ، وأعطاه دواء البطن ، وقال له : خذ هذا الدواء وانفع به النَّاس ، ولا تسأل عليه أجراً ، وكن محتسباً ، لتكون لك المنزلة الرفيعة عند الملك ، فإنَّ أحبَّ الأعمال إلى المَلِكِ عملك هذا .

فقال سمعاً وطاعة ؛ فنظر النائب بعد خروجه من عند الحكيم في

---

(١) أخرجه مسلم ، رقم : (١٦٣١) وابن حبّان في صحيحه ، رقم : (٣٠١٦) والترمذي ، رقم : (١٣٧٦) .
(٢) المصدر نفسه .

دواء البطن ما هو ؟ فإذا هو عسل أبيض . فقال : الحمد لله فيه شفاء للناس ، فأتاه شخص مثلك أيها الأخ ـ بصَّرَكَ الله بعيبك ، ووفَّقك لترقيع جيبك ـ فقال : ما هذا الذي عندك ؟ فقال : دواء البطن للمبطونين . فقال : أرني إيَّاه ، فأظهره له في ظرف مختوم على فيه ، فاشتَمَّه من قِبَله فقال له : ما هذا دواء البطن ، هذا سُمٌّ أتيتَ تهلك الناس به ! فقال : يا أخي هذا عسل مصفّى ، هذا للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، فذقه حتى تعلم .

فقال له : ما أنت أعلم ولا أعرف مني ، من ذاق هذا هلك ، أيها الناس ! هذا ما أنزل الله به من سلطان ، وأكثر الناس حمقى ، وشبه الشيء منجذب إليه فترك الناس التداوي به مع شدة حاجتهم إليه بسبب كلام هذا الأحمق المغرور ، فلا يزال يتكلم في ذم الدواء والمداوي والمتداوي ، ويصد عنه من أراد شفاء مرضه الذي عطله عن خدمة الملك ، وستذكرون ما أقول لكم : ولتعلمن نبأه بعد حين .

التاسع : من المعلوم أنا لم نبتكر شيئاً جديداً ، وإنما قلدنا من تَقَدَّمنا من العلماء العاملين والأكابر العارفين ، من أهل المذاهب الأربعة ، كما سترى تقريرهم الرابطة ، وكيفياتها ؛ بل أقسم أنَّ جميع حركاتي وسكناتي في الطريقة هو ما هو عليه أئمة مذهبي « الشافعية » وقد استوفت كتبهم جميع ما نتعاطاه من الأعمال المخصوصة ، فما وجه الإنكار علينا ؟ مع اتباعنا أئمة الدِّين والعلماء العالمين ، كالغزالي ، والنووي ، والقاضي زكريا ، وابن حجر ، والشَّعراني ، والمناوي ، أتظن أن إنكارك ما يتوجه على أولئك السادة الأبرار ، والأولياء الأخيار ، وأولي الأنوار والأسرار ، أما تخشى محاربة الواحد القهار ، أما علمت أن الإنكار عليهم يؤول بصاحبه إلى سوء الخاتمة ودخول النار ؟ أتظن أن إنكارك ظاهراً واعترافك

باطناً ليس من التلبيس ومشاكلة إبليس .

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] تنبه لنفسك أيها المغرور ! واخشَ عواقب الأمور .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر : ٣٠] .

﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

وهذا السؤال لا يحتمل هذه الأجوبة ، وإنما أوردناه نصيحة وإفادة وترغيباً وترهيباً . ولكل امرىء ما نوى ، ونسأل الله أن يمن عليك بالهداية وسلوك سبيل الأبرار ، وأن يجنبك الإصرار في سبيل الأشرار إنه ولي المؤمنين .

واعلم يا أخي أنَّ سبب الإنكار أحد الأمرين لا يخلو من أحدهما كل منكِرٍ : الجهل ـ وهو الأكثر ـ وعدم العمل بالعلم وهو الأغلب على من ينتسب إليه ، فإن كنت جاهلاً يا أخي فلا تقف ما ليس لك به علم فتقع في الظلم ، ولا تقل هذا حلال وهذا حرام ، لتحكم بغير ما أنزل الله .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة : ٤٤] وإن كنتَ عالماً فاعمل يا أخي بعلمك :

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] »[1] .

□ □

(١) مكتوبات الإمام الرباني : (١/ ٢٣١ ـ ٢٤٦) الهامش .

الفصل الخامس عشر

□ يقول الشيخ صاحب الرسالة ـ أيضاً ـ وهو يتكلم عن رابطة المصطفى ﷺ وأهميتها ونفع السالك في طريق الوصل إلى مراقبة الله عزَّ وجلَّ ونفي ما سواه :

« اعلم أيها الأخ في الله ، ألهمك الله رشدك ، وجعلك عبده لا عبدك : إن رابطة الشيخ الكامل توصلك إلى رابطة رسول الله ﷺ ، وثمرتها الفناء في النبيِّ ﷺ ، وذلك من أجلِّ النعم وأوفر القسم :

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٥] والفناء في النبي ﷺ موجب للولوج في حضرة القدس ، والهيمان في مفاوز الأنس ، والتعرض لنفحات الله تعالى مأمور به ومحبة رسول الله ﷺ فرض .

روى البخاري في صحيحه عن أنس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[1] والنفس تدخل في عموم قوله : « وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وقد وقع التنصيص بذكر النفس في حديث عبد الله بن هشام وهو أنَّ عمر رضي الله عنه قال للنَّبيِّ ﷺ : لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي ، فقال رَسُولُ الله ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم : (١٥) ومسلم ، رقم : (٤٤) والنسائي ، رقم : (٥٠١٣) .

« لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » .

فقالَ عُمَرُ رضي الله عنه : فَإِنَّهُ الآنَ وَاللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي .

فَقَالَ ﷺ :

« الآنَ يَا عُمَر »[1] .

ويكفيك قوله تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] .

فمن هو أولى بك من نفسك ، فكيف لا ينبغي أن يكون أحب إليك منها ؟!

قال سهل رضي الله عنه : من لم ير ولاية رسول الله ﷺ في جميع أحواله وير نفسه في ملكه لا يذوق حلاوة سنته[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبّاً نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي ، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ »[3] .

وفي كتاب « الشفا » سئل عليٌّ رضي الله عنه : كيف كان حُبُّكُم لرسول الله ﷺ ؟

قال : كَانَ وَاللهِ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَوْلادِنا وَآبَائِنا وَأُمَّهَاتِنَا ، وَمِنَ الْماءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَأ[4] .

وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه : خرج عمر رضي الله عنه ليلة

---

(١) أخرجه البخاري [جامع الأصول : ٨/٥٤٣] .
(٢) الشفا للقاضي عياض : (٢/٤٥) .
(٣) أخرجه مسلم ، رقم : (٢٨٣٢) وابن حبان في صحيحه ، رقم : (٧٢٣١) .
(٤) الشفا للقاضي عياض : (٢/٥١ ـ ٥٢) .

يحرس فرأى مصباحاً في بيت عجوز تنفش صوفاً وتقول :

عَلَى مُحَمَّدٍ صَلاةُ الأَبْرَارِ صَلَّى عَلَيْهِ الطَّيِّبُونَ الأَخْيَارُ
قَدْ كُنْتَ قَوَّاماً بُكاً بِالأَسْحَارِ يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالمَنَايَا أَطْوَارُ
هَلْ تَجْمَعُنِي وَحَبِيبِيَ الدَّارُ ؟

فجلس عمر يبكي[1] .

وروي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما خدرت رجله فقيل له اذكر أحب الناس إليك يزل منك . فصاح : « وامحمداه » فانتشرت[2] .

قال : واعلم أنَّ من أحب شيئاً آثره وآثر موافقته ، وإلّا لم يكن صادقاً في حبه ، وكان مدّعياً ، فالصادق في حب النبيِّ ﷺ من تظهر علامات ذلك عليه .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ :

« يَا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لأَحَدٍ فَافْعَلْ ، ثُمَّ قَالَ لِي : يَا بُنَيَّ وَذلِكَ مِنْ سُنَّتِي ، وَمَنْ أَحْيا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ »[3] .

ومن علامات حب النَّبيِّ ﷺ كثرة ذكره وتعظيمه ، وتوقيره عند ذكره ، وإظهار الخشوع والانكماش مع سماع اسمه .

كان أصحاب النبي ﷺ بعده لا يذكرونه إلّا خشعوا واقشعرت جلودهم ، وبكَوْا ، وكذلك كثير من التابعين .

---

(١) المصدر السابق : (٢/ ٥٢) .
(٢) المصدر السابق : (٢/ ٥٣) .
(٣) أخرجه الترمذي ، رقم : (٢٦٨٠) .

قال بعضهم : المحبة دوام الذكر للمحبوب .

وقال آخر : إيثار المحبوب على جميع المصحوب .

وقال آخر : الميل الدائم بالقلب الهائم .

وقال آخر : موافقة الحبيب في المشهد والمغيب .

وقال آخر : أن تهب كلك لمن أحببت .

وحقيقة الحب : الميل إلى ما يوافق الإنسان وتكون موافقته له ، إمّا بإدراكه ، كحب الصور الجميلة ، والأصوات الحسنة ، والأطعمة والأشربة اللذيذة وأشباهها ، مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له ، أو استلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه ، معاني شريفة باطنة ، كمحبة الصالحين والعلماء ، وأهل المعروف ، والمأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة ، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصب بقوم لقوم ، والتشيع من أمة إلى أخرى ، إلى ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان ، وهتك الحرم ، واخترام النفوس . وهو ﷺ جامع للمعاني الموجبة للمحبة كلها .

قال الشهاب ابن حجر في شرح الهمزية عند قول الناظم :

فَإِمْلاءُ السَّمْعِ مِن مَحَاسِنَ يُمْلِيهَا عَلَيْكَ الإِنْشَادُ والإِنْشَاءُ

فإنها تحدث للسامع سُكْراً وأريحيّة وطرباً ، وتحرك النفس إلى جهة محبوبها ، فيحصل بتلك الحركة والشوق تخيل المحبوب وإحضاره في الذهن ، وقرب صورته من القلب ، واستيلاؤها على الفكر ، فيحصل للروح ما هو أعجب من سكر الشراب ، وألذ من عناق الشوابّ !

ومن فوائد الصلاة على النبي ﷺ : محبة المصطفى للمصلي على

رسول الله ﷺ ؛ بل زيادة المحبة المذكورة اللازمة لها ازدياد الشوق مع استحضار المحاسن النبوية في القلب والجنان ، بحيث يمثل خياله به ولا يكاد يفتر من ذكر القلب واللسان .

يقول الشيخ أحمد بن عبد الحي الحلبي في آداب الصَّلاة على النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام :

اعلم أنه يتأكد على المصلي على النَّبيِّ ﷺ أن يتصور وقت الصلاة عليه ﷺ صورته النبوية الكريمة في مرآة قلبه ، كأنه بين يديه ، سائلاً من الله الصَّلاة والسَّلام عليه ، لأنه إذا واظب المصلِّي على ذلك تدوم عليه غاديات أنواره الكريمة المحمدية .

ويقول الشيخ ـ أيضاً ـ: واعلم أنَّ من ثمرات الصلاة على النبيِّ ﷺ انطباع صورته الكريمة في النفس انطباعاً ثابتاً متأصلاً متصلاً »[1] .

□ □ □

(١) مكتوبات الإمام الرباني (الهامش) ص : (٢٣٠ ـ ٢٦١) .

الفصل السادس عشر

□ وأمّا « رابطة » الأولياء الكُمّل ورجال الله الأتقياء الفانين في الله والباقين به ، فيقول الشيخ حسين رحمة الله عليه في ذلك :

« اعلم أيها الأخ منَّ الله عليَّ وعليك بمحبة أوليائه ، وسلك بنا سبيل المهتدي بضيائه : أن سفيان الثوري قال : لا نجاة يوم يخسر المبطلون إلَّا لنبيٍّ أو تابع نبيٍّ ، أو محب .

ولو أنَّ عارفاً بالله في مشرق الشمس ينطق بحقيقة ، ورجل محب له في مغربها ، لكان له نصيب من ذلك على حسب قسمته وتهذيب محبته ، وإنَّ الرجل ليعانق الرجل وإن كان بينه وبينه لأبعد مما بين المشرق والمغرب ، وقلب العارفين يكتب ، وقلبُ المريدين يُكتَبُ فيه .

□ وقال سيد الطائفة الجنيد : أقرب الطرق إلى حصول المقصود ، دوام ربط القلب بالشيخ واستفادة علم الواقعات منه حتى يفنى تصرفه في تصرف الشيخ .

وقال المحقق الأردبيلي شارح المشكاة في رسالته المكية :

الشرط السابع : دوام ربط القلب بالشيخ واستفادة علم الواقعات منه من جهة الإرادة التامة ، لأنه الرفيق في الطريق ، قال الله تعالى :

□ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة] .

□ وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] .

□ ثم قال : المريد إن تيقن أنَّ روحانية الشيخ غير متحيزة بموضع دون موضع ، وكل ما يكون متحيِّزاً استوت عليه الأمكنة كلها ، ففي أي موضع يكون المريد لا تفارقه روحانية الشيخ ، وإن كانت تفارق شخصيتها والبعد إنما يتعلق بالمريد ، وإذا تذكر المريد الشيخ بقلبه قرب إليه ، فيتعلق قلبه به ، فاستفاد منه ، فإذا احتاج المريد إلى الشيخ ليحلَّ واقعته يستحضره بقلبه ، ويسأله عما يشاهده ، لا بلسان الظل ؛ بل بلسان القلب ، فيلهمه روح الشيخ معنى الواقعة عقيب السؤال ، وإنما تيسر له ذلك بواسطة ربط قلبه بالشيخ ، ومن هذا الوجه يفصح له لسان القلب ، وينفتح له طريق القلب إلى الله تعالى فيجعله محدثاً .

□ وقال : سيدي إبراهيم الدسوقي : « يا أولادي! إن صَحَّ عهدكم معي ، فأنا منكمْ قريب ، فإنْ أخذتم عهدي وعملتم بوصيتي وسمعتم كلامي ، ولو أنَّ أحدكم بالمشرق وأنا بالمغرب ، رأيتم شيخ شخصي ، فمهما ورد عليكم شيء من مشكلات سركم ، أو شيء تستخيرون فيه ربكم ، فوجِّهوا وجهكم وأطبقوا عين حسكم ، وافتحو عين قلبكم ، فإنكم تروني جهاراً ، وتستشيروني في جميع أموركم ، فما قلته لكم فاقبلوه وامتثلوه ، وليس هذا خاصّاً لي ؛ بل عامٌّ لكلِّ شيخ صدَقتم في محبته ، وقد يعلم ذلك شيخكم وقد لا يعلمه ، هكذا جرت سنة أولياء الله مع مريديهم » .

□ قال الشيخ أحمد بن إبراهيم بن علاّن الصِّدِّيقي في شرح قصيدة الشيخ أحمد بن الدائم الأنصاري الشاذلي ، التي أولها :

مَنْ ذاقَ طَعْمَ شَرابِ القَوْمِ يَدْرِيهِ   وَمَـنْ دَرَاهُ غَـداً بِـالـرُّوحِ يَشْـرِيـهِ

عند قول الناظم : « إذا رأى ذكر المولى برؤيته » كما ورد في وصف الصالحين « الذين إذا رؤوا ذكر الله » لأنَّ نور قلبه مشرق على وجهه ، سيماهم في وجوههم ، فمن رأى نورَ الحقِّ الساطع من قلبه على وجهه ومن تَمَّ له ذلك فاز بالسعد والقرب ، ومثل ذلك الشمس إذا أشرقت على جدار ، وفي مقابل ذلك الجدار جدار آخر ، فيستشرق ذلك الجدار الذي أشرقت عليه الشمس ، وعند ناظم القصيدة طريقة معروفة مشهورة عند المشايخ ، يسمونها بالرابطة ، وهي رؤية وجه الشيخ ، فإنها تثمر ما يثمر الذِّكر ؛ بل هي أشد تأثيراً من الذِّكر لمن عرف شرطها وآدابها ، ومن ذلك كانت تربية النَّبيِّ ﷺ للصحابة ، رضي الله عنهم ، فكانوا يستغنون برؤية طلعته السعيدة ، وينتفعون بها عن كل رياضة ومجاهدة ، أكثر مما ينتفعون بالأذكار في مدة مديدة ، ولهذا كانت درجة الصحابة لا تضاهى ، والاجتماع بالمشايخ ولو ساعة ، مرتَبَةٌ بها يُتَباهى .

□ وقال ابن أبي الداود الحنبلي صاحب كتاب تحفة العباد في كتابة آداب المريد :

وعلامة صحة إرادة المريد : تعلق قلبه بشيخه ، واستغراقه في مشاهدته ، في الغَيْبَةِ والحضور ، حتى لا يشهد معه من الخلق أحد غيره ، فإذا صحَّ له هذا المشهد انتقل منه إلى مشهد الجمال السرمدي ، وهذا الذي لا يشهده إلَّا أهل المعرفة بالله ، لا الغبي الجاهل ، المفتون بشهوة نفسه الأمّارة بالسوء ، أو الجامد الذي ليس عنده شيء من الروحانية .

□ قال الشاعر :

إذا أنتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ ما الْهَوَى
فَكُنْ حَجَرا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَامِداً

□ قال ابن عطاء الله الشاذلي : في آداب الذكر قالوا (يعني : المشايخ) : وإن كان أي : المريد تحت نظر الشيخ يخيل شيخه بين عينيه ، فإنه رفيقه في طريقه وهاديه ، ويستمد أول مشروعه في الذكر من همته ، معتقداً أن استمداده منه هو استمداده من النَّبيِّ ﷺ لأنه نائبه .

□ قال الشيخ عبد الوهَّاب الشعرانيُّ في رسالته « مدارج السالكين » :

الأدب السابع : أن يخيل خيال شيخه بين عينيه ، وهو عندهم من أهم الآداب وآكدها .

□ وقال أيضاً : اعلم يا أخي! أنَّ ربط أحدنا قلبه بشيخه الحي أو الميت ينفعنا ، ولو لم يكن ذلك الشيخ في علم الله شيخاً ، لأنَّ ربطنا حقيقة إنما هو لاستناده إلى الله ، لا لذاته ، ومحال أن يوجد الحق تعالى عند السراب الذي ظنه الظمآن ماءً ، ويفقد عند عبد من عباده مشهور بالصلاح ، مع أنَّ السراب ليس له حقيقة ، بخلاف الصالح له وجود وحقيقة ، فافهم .

□ قال الشيخ تاج الدين الحنفي في كتابه المشهور بالتاجية :

الثانية : طريقة الرابطة بالشيخ الذي وصل إلى مقام المشاهدة ، وتحقق بالتجليات الذاتية ، فإنَّ رؤيته بمقتضى : هم : « الَّذينَ إذا رُؤوا ذُكِرَ الله »[1] فينبغي أن تحفظ صورته في الخيال ، وتتوجه للقلب الصنوبري ، حتى تحصل الغَيْبَة والفناء عن النفس ، وإن وقفت عن الترقي ، فينبغي أن تجعل صورة الشيخ على كتفك الأيمن في خيالك ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، رقم : (٤١١٩) .

وتعتبر من كتفك إلى قلبك أمراً ممتداً ، وتأتي بالشيخ على ذلك الأمر الممتد ، وتجعله في قلبك ، فإنه يرجى لك حصول الغَيْبَةَ والفناء .

□ وقال الشيخ إبراهيم بن عمر الملا الأحسائي في رسالته : فإن لم تمكنه مصاحبة الشيخ لتعذره ببعده عنه ، فعليه بإحضاره في خياله ويعتقد أنه في حضرته وصحبته ، ويتصور نفسه كأنها بين يديه ، ويحفظ ذلك التصور في خياله ، ويفنى في وجود الشيخ بكليته ، ثم يتوجه من وجود الشيخ إلى الله تعالى ، ويتكلف ذلك ويكرره مرة بعد أخرى ، إلى أن يشرق النور الإلهي ، على لطيفته ، إشراقاً يكشف الغطاء عن أسرار المعاني ، فيكون بالله لا بغيره ولا بنفسه .

□ والكلام في « الرابطة » لا نهاية له ، وفي ما ذكرناه كفاية للموفق ، فتأمل بفهمك ، وميِّز علمهم من علمك ، وانظر هل حصل لك من العلم ما حصل لأدناهم؟ وهل وجدت من اليقين ما وجد أدنى من والاهم؟ هيهات ، هيهات! كما لا يستوي ساسة الحمير ، وأصحاب الملوك ، كذلك لا يستوي أهل الشهوات وأتباع أهل السلوك . فاعلم ذلك وإيّاك في الطعن على أهل هذه المسالك ، فإنه يوقع في المهالك ، واللهُ يتولّى هداك[1] .

□ □ □

---

(١) مكتوبات الإمام الرباني : (١/ ٢٦١ ـ ٢٧٠) الهامش .

الفصل السابع عشر

□ وقد كتب الشيخ السيد إبراهيم حيدري زادة ، رسالة مطولة في إثبات « الرابطة » التي هي من أعظم أركان الطريقة النقشبندية ، ومدار أمرهم ـ قدس الله أسرارهم ونفعنا بعلومهم ـ مقتصراً فيها على بيان الأدلة الشرعية على وجودها في السُّنَّة النبويَّة ، وناقلاً فيها أقوال كبار العلماء ، والأفاضل العارفين ، ولزيادة الإفادة والاستفادة ، ولتمام النفع والانتفاع ، أنقلها هنا لكم مع حذف بعض الزيادات ، فيقول صاحب الرسالة :

من جملة الأدلة الواضحة فيها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

قال الشيخ العارف أبو عبد الرحمن السُّلَمي ـ قدس الله روحه ـ في تفسيره المسمى بـ « الحقائق » : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا القاسم البزاز يقول بمصر ، يذكر عن ابن عطاء رحمة الله عليهم قال : الصلاة من الله (صلة) ومن الملائكة (رِفعة) ومن الأمَّة (متابعة ومحبة) .

□ وقال القاضي عياض في الباب الرابع من القسم الثاني في « الشفا » : الصلاة من الله لمن دون النبي رحمة ، وللنبيِّ ﷺ تشرُّف وزيادة مكرمة .

والمعارف الإلهية ، فاعلم : أنَّ الاستقامة في اقتباس العلوم اللدنيَّة ، من روح رسول الله ﷺ ، سواء كانت في حياته أو بعد وفاته ، تتوقف على حصول المناسبة الروحانية ، بينه وبين المستفيض ، إذ هي أمور روحانية ، فلا بُدَّ من حصولها بينهما ، بخلاف ما يتعلق بظواهر الشرع ، وعلم الأحكام ، فإنَّه يؤخذ من أقواله وأفعاله الظاهرية ، بمجرد السماع والرؤية ، فلا حاجة فيه إليها ، ثم إنَّ تلك المناسبة الروحانية لمّا لم يتيسر حصولها إلّا بالتوجُّه لها وربط القلب بنور نبوّته بالمحبة الكاملة والاتباع التام ، مع المجاهدات والرياضات الشرعية المُعينة على تلطيف الطبيعة البشرية وترقيقها ، المعلومة بتعلمه عليه الصلاة والسلام .

□ أرشد الله تعالى عباده إلى طريق تحصيلها ، فأمرهم بالصَّلاة والتسليم عليه ، لتكونا وسيلة لتوجههم إليه وربط قلوبهم به ، حتى تحصل لهم تلك المناسبة لأجل استفاضتهم واستمدادهم منه ، في تكميل نفوسهم ، لا لاستفادته من دعائهم له ، إذ هو من حيث كونه مظهر التجليات الرحمانية ، ومطلع أنوار المعارف الربّانية ، ومأخذ علوم الأنبياء والأولياء ؛ بلا شك ولا شبهة ، غنيٌّ بصلوات الله عليه ، عن صلاة الأمة ، ومرحوم بأعلى أنواع الرحمة ، كما عرفتَ آنفاً من أقوال الأئمة ، فذلك هو سِرُّ تشريع الصَّلاة والتسليم عليه ، فإنَّ الصلاة والتسليم عليه بحضور القلب والمحبة الكاملة ، مع تدبُّر معناهما ، والتفكر في أنه على من يصلي ويسلم تستلزم التوجه إليه وتصَوره ، وربط القلب به لا محالة ، وهذا كالبديهي عند كلِّ من له ذوق سليم ، وعقل مستقيم ، إلّا أن يكون القارىء جاهلاً غبياً ، أو غافلاً متلهياً ، لا يفهم ما يقول ، ولا يعرف في أي ميدان يجول ، ولا يعطي باله نحو الرسول ، فبهذا تكون صلاته وسلامه كهذيان النائم ، أو كهجر المريض الهائم ، فليس لنا فيه كلام .

وأما على الاعتبار الأول فلا بُدَّ من التوجه والتصوُّر ، فإذا تحققا فقد تحققت الرابطة وحصلت ، إذ هي عبارة عنهما فحينئذ قد دلّت الآية التزاماً على وجودها .

وثبوتها في السُّنَّة النبوية ، وكون الأمة مأمورة بها ، مع أنَّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ كانوا عارفين بشخصه الكريم وحليته الشريفة بالمشاهدة على الدوام ، وعالمين بمعنى اللغة والكلام ، فهل يتصور منهم أن يصلُّوا ويسلِّموا عليه غافلين عنه؟ من غير مطالعة جماله واستحضاره في قلوبهم ، وهو قرَّة عيونهم ، هذا لعمرك من قبيل المحال .

فإذاً قد ثبت وجود الرابطة في السنة النبوية بلا شك ولا جدال ، والله أعلم بالصواب .

□ قال أهل النظر : الطلب بلا تصور محال ، لأنه توجه النفس نحو المجهول وهو محال ، فالطلب بلا تصور محال ، وهذا القياس يجري في الصلاة على النَّبيِّ ﷺ ، إذ فيهما من معنى الطلب ما هو غنيٌّ عن البيان ، وإن قيل : يمكن أن يُأوَّل ذلك التصور بوجه مَّا؟

□ قلنا : وهذا القدر ـ أيضاً ـ كاف في إثبات المدعى ، لأنَّ الكلام ههنا في نفس التصور ، وقد وجد ، ولو بوجه مّا على أنَّ هذا التأويل بالنسبة إلى من لم يتشرف برؤيته أصلاً ، وأما بالنسبة إلى الصحابة فلا حاجة إليه كما لا يخفى .

□ وقال الفاسي في أوائل شرح « دلائل الخيرات » عند تحقيق معنى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

والصلاةُ أصلها الانحناء والانعطاف ، مأخوذ من الصلوَيْن ، وهما عرقان في الظهر في جانب الذنب إلى الفخذين ، وعظمان ينحنيان في الركوع والسجود .

قالوا : ولهذا كتب في المصحف بالواو ، وقال السهليُّ بعد قوله إنها مأخوذه من الصلوَيْنِ : ثم قالوا : صلى عليه ، أي : انحنىٰ عليه رحمة وتعطفاً ، ثم سموا الرحمة حنواً وصلاة ، إذا أرادوا المبالغة فيها .

فقولك : صلى الله على محمد ، هو أرق وأبلغ من قولك : رحم الله محمداً . في الحنو والعطف إلى آخره .

ويؤيد هذا ما قاله صاحب « تفسير المدارك » عند قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب ٤٣]: لمّا كان من شأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده ، استعير لمن ينعطف على غيره حنواً عليه وترؤفاً ، كعائد المريض في انعطافه عليه ، والمرأة في حنوّها على ولدها ، ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والترؤف ، ومنه قولهم : صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ ، أي : ترحَّم عليك وترأفْ ، فهذه العبارات أتم وأوضح دلالة عليها مما سبق ، كما لا تخفى على تأملها .

□ وقال الفاسي - أيضاً - في شرح الدلائل مصرحاً بالرابطة عند قوله ﷺ : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاَةً »[1] ثم إنما كان المكثر من الصلاة عليه أولى الناس به - والله أعلم - لتقربه واتخاذه عنده يداً بذلك ، كما قال عليه الصلاة والسلام لعلي بن الموفق رضي الله عنه لما حج عنه حججاً فرآه في المنام : « هذه يديك عندي

---

(١) أخرجه الترمذي ، رقم : (٤٨٤) وابن حبان في صحيحه ، رقم : (٩١١) .

أكافيك بها يوم القيامة آخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة ، والخلائق في كرب الحساب » .

ولأنَّ كثرة صلاته عليه تدل على شدة حبه ، لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »[1] وشدة محبته له تدل على قوة متابعته له : « إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ » .

ومن كان بهذه المثابة ، من كثرة الصلاة والمحبة والمتابعة ، قربتْ روحه من روحه ﷺ ، وحصل بينهما التعارف والايتلاف ، والارتباط والمناسبة ، فكان من أولى الناس به يوم القيامة لاستمداد نوره من نوره ، ومتابعته فيه .

قال : ثم اطلعت على قول الشيخ أبي عبد الله الساحلي رضي الله عنه في « بغية السالك » أنَّ من أعظم الثمرات وأجلِّ الفوائد المكتسبات بالصلاة على النبيِّ ﷺ (انطباع صورته الكريمة) في النفس انطباعاً ثابتاً متأصلاً متصلاً ، وذلك بالمداومة على الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ ، بإخلاص القصد ، وتحصيل الشروط والآداب ، وتدبير المعاني ، حتى يتمكن حبُّه من الباطن ، تمكناً صادقاً خالصاً ، يصل بين نفس الذاكر ونفس النَّبيِّ ﷺ ، ويؤلف بينهما في محل القرب والصفاء تأليفاً بحسب تمكن حبه من النفس ، فالمرء مع من أحب ، والحب يوجب الاتباع للمحبوب ، والاتِّباع يؤذن بالوصال ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء : ٦٩] .

---

(١) البخاري ، رقم : (٥٨١٧) ومسلم ، رقم : (٢٦٤٠) وأبو داود ، رقم : (٥١٢٧) والترمذي ، رقم : (٣٥٢٩) .

و : « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ »[1] .

وممّا يدل على وجودها في السُّنَّة النبوية قول المصلي في داخل الصَّلاة في التشهد : « السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ » فإنَّ المتكلم بهذا الكلام إذا كان يعلم معناه ، ويتذكر أنَّ الكاف موضوعة لخطاب الحاضر ، وكلمة أيها كذلك لنداء الحاضر ، ثم يتأمل لمن يخاطب وينادي ، وعلى من يسلِّم ويرحِّم ويبارك ؟ كيف يجوِّز العقل أن لا يستحضره في ذهنه ، ولا يتصوره في خياله ، هذا كالمحال عند كل عاقل متدين منصف ، فحينئذ قد طلعت شمس « الرابطة » وأشرقتْ في آفاق القلوب أنوارها الساطعة ، وقد صرح بهذا المعنى الإمام حجة الإسلام الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » عند ذكره التشهد في الصلاة .

وإن قيل هذا التفكير يلزم ـ أيضاً ـ عند قراءة قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة : ٥] لملاحظة معنى ضمير الخطاب .

قلنا : نعم يلزم ذلك ؛ بل عند الذكر وتلاوة القرآن مطلقاً كذلك .

لكن نهى رسول الله ﷺ عن التكلف والتوغل فيه ، وأمر بالتفكر في آلائه تعالى بقوله ﷺ : « تَفَكَّرُوا فِي آلاءِ اللهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ »[2] .

---

(١) أخرجه مسلم ، رقم : (٢٦٣٨) وأبو داود رقم : (٤٨٣٤) وابن حبان في صحيحه ، رقم : (٦١٦٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط [مجمع الزوائد ، رقم : (٢٦٠) تحقيق الأستاذ : عبد الله الدرويش .

فإنَّ التفكر فيه تعالى يؤدي إلى التصور والتخيل، وهو سبحانه وتعالى منزّهٌ عنهما وعن كلِّ ما يخطر ببالك : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ ﴾ [الشورى : ١١] .

فإذا غلب على الذاكر هذا التفكر يصرف باله نحو نائبه وخليفته تعالى ، فيأمن منه ، فهذه من جمل فوائد الرابطة ، ولها فوائد جليلة أخرى ، لا تُعْرَفُ إلّا بالذَّوْق والوجدان ، ثم إذا كان التفكر في آلاء الله ، وفي خلق السموات والأرض مطلقاً ، جائزاً ومُرغباً فيه بالحديث المذكور ، وبقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

فكيف لا يجوز ذلك في أفضل خلق الله وأشرف آلائه ، وأعظم نعمائه « محمد رسول الله ـ ﷺ ـ وحبيبه » الذي هدانا به إلى الصراط المستقيم ، وبه علَّمنا التوحيد والتنزيه ، وخلصنا من الشرك والعذاب الأليم ، وفي خلفائه وأتباعه الصَّالحين الكاملين الذين هم نجوم الهدى في الدِّين ، فلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم .

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[1] .

ففي هذا الحديث الشريف إشارة واضحة ؛ بل دلالة صريحة ، لكون الرابطة والتوجه إليه مسنونة ومرغوباً فيها ، ذلك لأنَّ العشق والمحبة الكاملة البالغة إلى هذه المرتبة تستدعي توجه القلب نحو المحبوب ضرورة ، فيتصوره المحب في ذهنه متوجهاً إليه بكليته ، بحيث لا يغفل عنه ساعة ولا ينساه أبداً ، فعلى هذا يكون الترغيب في المحبة ترغيباً في

---

(١) تقدم تخريجه في صفحة : (٩٨) حاشية : (١) .

التوجه والرابطة بلا شك ، كما يدل عليه قوله عليه السلام ، وإنما أشار إلى التوجه بالمحبة تشبيهاً على أن التوجه إليه بلا محبة ، أو بالبغض والعداوة والإنكار عليه لا يجدي نفعاً ، بل يزيد في المنافرة والمباعدة ، بخلاف العشق والمحبة ، فإنه تقرب بذلك روح المستفيض من روح المصطفى ﷺ ، ويحصل الائتلاف والتعارف ، والمناسبة بينهما ، فيستعد لقبول الفيض والمعارف الإلٓهية منه عليه الصلاة والسلام ، فذكرَ الملزومَ الذي هو المحبة ، وأراد لازمها ، أعني التوجه ، ليكون أبلغ وأشمل في إفادة المرام .

وقيل : أشار إليه بالمحبة لكونه من قبيل المتشابهات ، ودفعاً لمطاعن أهل الشرك والضلالات ، بحكم الوقت والزمان ، لأن عصره عليه الصلاة والسلام كان بداية الإسلام ، قريباً من عصر الجاهلية ، مع وجود المنافقين بين الأمة ، فلو أمر بالتوجه صراحة لاتهمه أهل الشرك والنفاق بمقتضى جهلهم بحقيقة الأمر ، ولكونهم عُمْياً وبكماً وصمّاً ، مأواهم النار .

بدعوى الألوهيّة واستعباد الناس لنفسه ، وحاشاه الله من ذلك .

□ قال القاضي في « الشفا » : إنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! لأنتَ أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي ، وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك ، وإني ذكرت موتي وموتك ، فعرفت أنك إذا دخلتَ الجنة رُفعتَ مع النبيين ، وإن دخلتُها لا أراك ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ [النساء : ٦٩] فدعا به فقرأها عليه .[1]

وفي حديث آخر : كان رجل عند النبي ﷺ ينظر إليه لا يطرف ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما بالك ؟ قال بأبي أنت وأمي : أتمتع بالنظر إليك ، فإذا كان يوم القيامة رفعك الله بتفضيله . فأنزل الله الآية[1] .

فهل يحتاج إلى الأمر والتنبيه بصريح المقال من حصل له مثل هذا الحال ، هكذا كانت أحوال الصحابة معه ﷺ ، حتى أثمرت لهم المحبة القلبية ، المعية الروحانية ، التي هي سر الصحبة في الحقيقة ، الذي أشار إليه عليه الصلاة والسلام بقوله :

« مَنْ أَحَبَّنِي كانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ »[2] فذاقوا حلاوة الصحبة والإيمان ، ودخلوا جنة المشاهدة والعيان ، وبه عرفوا قدْرَ الإسلام ، وكذلك كانت أحوال التابعين والأئمة المجتهدين ، والسلف الصالحين معه ، بعد وفاته ﷺ ، فكلهم كانوا متوجهين إلى الحضرة النبوية ، وعاشقين له ، ورابطين به قلوبهم بالمحبة الكاملة ، ومستمدين ومستفيضين من روحانيته العلية ، بمطالعة جماله وشمائله الشريفة السنية ﷺ ، غُدْوةً وعشية ، وإن شئت الاطلاع على نبذة من أحوالهم فعليك بمراجعة كتاب « الشفا » لعلك تجد لداء الشك فيه شفاء ، فكذلك يجب أن تكون أحوال أمته معه بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ، حتى يفوزوا بالسعادات كهؤلاء السادات .

فقد تبين من المقالات السابقة : أنَّ الرابطة كانت تحصل للصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، من شدة محبتهم وكمال اتِّباعهم لرسول

---

(١) أخرجه الطبراني وابن مردويه [الشفا : ٢/٤٨] الهامش وانظر « أسباب النزول » للواحدي ، ص : (١٤٠ ـ ١٤١) تر تفصيلاً لذلك .
(٢) أخرجه الأصفهاني في ترغيبه [الشفا : ٢/٤٨] الهامش .

الله ﷺ ، وكذلك كان حصولها للتابعين وأتباعهم ، من صحبة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المرشدين ، ولما تمادى الزمان ، وتكدرت بالأشغال الدنيوية قلوب الأنام ، وفترت عزائمهم في المحبة بالإخلاص التامِّ احتاجوا إلى التنبيه عليها والتصريح بها ، فأمر الخلفاء المرشدون[1] السالكين بالتكلف فيها لجمع قلوبهم ، وتلقيح أرواحهم بأرواحهم ، وتأليفها لأجل الاستفاضة منهم ، ثم عبَّروا عن هذه المحبة الروحانية الدينية بالرابطة ، لأنَّ العشقِ والمحبة يربط قلب المحب بالمحبوب ويقيده به ، فيحصل الارتباط الروحاني بينهما ، وقد يسمونها نسبة ، لانتسابه وإضافته بها إليهم ، فصارت اصطلاحاً شائعاً فيما بينهم ، كما أنَّ لكل قوم اصطلاحاً ، ولمّا كانت الرابطة من أخص أوصافهم ، وأعظم أركان طريقتهم ، ومدار أمرهم ، اشتهروا بها بين الناس ، حتى سموهم مرابطين ، فلم يزالوا يسمونهم في بلاد العرب بهذا الاسم إلى يومنا هذا ، فيعنون به الصوفية المقربين والأولياء العارفين قدس الله أسرارهم ، وكذلك سميت طريقتهم طريق العشق والمحبة ، لأنَّ مدار الأمر والعمدة فيها كما عرفتَ هو المحبة الدينية للرفيق الديني ، الواصل الموصل إلى الله ، العارف بأسرار السلوك في سبيل الله ، وفي الله ، وفي تحصيل رضى الله ، لا لغرض مما سواه . وفي مثل هذه المحبة يقول الله عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي :

« أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي ، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي »[2] .

---

(١) شيوخ العلم والتربية .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ : (٢/٩٥٢) والإمام أحمد في مسنده : (٢/٢٣٧) ومسلم ، رقم : (٢٥٦٦) وابن حبان في صحيحه ، رقم : (٥٧٤) .

وعن عبادة بن صامت ، عن رسول الله ﷺ قال :

« يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ : حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَصَادِقِينَ فِيَّ »(١) .

وفي تفسير ابن مسعود عند قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس : ٦٢] .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال :- سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنَّ من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى ، قالوا : يا رسول الله خبرّنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم . قال : « هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام منهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور وَإِنَّهُمْ لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس »(٢) .

وهذه المحبة اختيارية وعقلية ، فإنَّ العاقل إذا تيقن منفعته وسلامته في شيء يختاره لنفسه بحكم عقله ، ولو كان خلاف طبعه ، كشرب المريض الدواء المُرَّ باختياره ، بخلاف ما تحبه النفوس بالميل الطبيعي كالمحبة الكائنة بين الآباء والأولاد ، أو الحاصلة من النظر إلى الأشياء العجيبة والصور الجميلة ، فإنها جبليّة واضطرارية ، وقد تنقلب المحبة الاختيارية : اضطرارية ، وذلك حين مشاهدة كمالات المحبوب ، بعد حصول الاتحاد الروحاني بينهما والدخول إلى الحرم الخاصّ بفضل الله تعالى ، ثم إن الرابطة وإن كانت أصالةً لرسول الله ﷺ إلّا أنه لا شك في

---

(١) أخرج بنحو، ابن حبان في صحيحه ، رقم : (٥٧٧) .
(٢) أخرج بنحوه أبو داود ، رقم : (٣٥٢٧) وابن حبان في صحيحه ، رقم : (٥٧٣) .

جوازها - أيضاً - إلى أولياء الله العارفين ، والمشايخ الكاملين ، الذين هم مأمورون بتسليك العباد وإرشادهم ، فإنهم آلهُ وأتباعه ، ونوابه وورثته عليه الصلاة والسلام ، الذين أمرنا بحبهم وإكرامهم والبر بهم ، كما وقعت الإشارة في الحديث السابق إليهم .

فكما جازت الصلاة والتسليم عليهم تبعاً للنبيِّ ﷺ ، جازت الرابطة إليهم - أيضاً - لأنها ليست من الخصائص النبوية ؛ بل هي من لوازم الدعوة وتتمة الإرشاد والتربية ، وهم يشاركونه فيها ، وفي لوازمها ، من حيث كونهم أتباعه ونوابه إلى يوم القيامة ، فكيف لا ؟ ألا ترى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فانظر كيف أشركهم به في الدعوة ؟ وكيف عممها بينه وبينهم ؟ فلا بُدَّ أن يفعلوا ما كان يفعله سيدهم في أثناء الدعوة والإرشاد ، وامتثالاً لقوله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

فهم أحق النّاس اقتداء به واتباعاً .

وتأمل - أيضاً - كيف أوجب لهم الطاعة علينا بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] وإن لم يكن هؤلاء السادات أولي الأمر ، فمن هو أجدر منهم بهذا المنصب الرفيع ؟ لا سيما أثنى عليهم رسول الله ﷺ بقوله :

« والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم : إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ويحببون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة » .

فهذا الذي ذكر في الحديث هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله ، كما

قال السُّهروردي في الباب العاشر من « العوارف »[1] .

وسَلَّم عليهم ـ أيضاً ـ في التحية مع نفسه قائلاً : السلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين ، فلا ريب في كونهم أوتاد الدين ، وسادات المسلمين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ومما يشير إلى وجود الرابطة وجوازها لغير النبي ﷺ وكونها مما يتقرب به إلى الله تعالى قوله عليه الصلاة والسلام في حق سيد الأولياء وسند الأصفياء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه « النظر إلى وجه علي عبادة »[2] كما رواه أئمة الحديث ونقله علي القاري أيضاً في شرح الشفاء . وكذا ورد في الحديث « النظر إلى وجه العالم عبادة »[3] .

□ قال الشيخ زين الدين الخوافي قدس سره في وصاياه عند عدِّه وشرحه الشروط الثمانية الجنيدية :

« السابع : دوام ربط القلب بالشيخ بالاعتقاد والاستمداد على وصف التسليم والمحبة والتحكيم ، ويكون في اعتقاده (يعني في اعتقاد السالك) أن هذا المظهر وهو الذي عينه الحق سبحانه للإفاضة عليَّ ولا يحصل لي فيض إلا بواسطته دون غيره ، ولو كانت الدنيا مملوءة من المشايخ ، ومتى ما يكون في باطن المريد تطلُّعٌ إلى غير شيخه لم ينفتح باطنه إلى حضرة الوحدانية .

فالإنسان في الجهات وله بدن وروح ، والله سبحانه منزَّه عن الجهات ، فحكمته اقتضت لاستفاضة مَنْ في الجهة عن الفيّاض الحقِّ الذي ليس في الجهة .

---

(١) عوارف المعارف ، ص : (٧٣) المطبوع بملحق إحياء علوم الدين .

(٢) أخرجه الطبراني بسند ضعيف [مجمع الزوائد : ٩/١١٩] .

(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس ، رقم : (٦٨٦٧) بلا سند .

أنْ عَيَّنَ للبدن الإنسان المركب من الكثرات الكثيرة جهة واحدة ، يكون توجُّهُه من تلك الجهة الواحدة إلى الحضرة الواحدية (وهي الكعبة) في عالم الأجسام والأبدان ، وعيَّنَ لروح الإنسان الذي هو مهبط أنوار الصفات الإلّهية جهة واحدة ، يكون من تلك الجهة توجهه إليه تعالى ، فتلك الجهة هي روحانية رسول الله ﷺ في عالم الأرواح .

فكما لا تقبل صلاة إلّا بالتوجه إلى الكعبة ، لا يحصل التوجه إلى الله إلّا باتباع رسول الله ﷺ ، والتسليم له ، وربط القلب بنبوته ، وأنه هو الواسطة بينه وبين الله تعالى ، دون غيره من الأنبياء ، وأنهم ـ وإن كانوا أنبياء الله وكلهم على الحق . ولكن ـ لا يحصل من الله فيض إلّا من ارتباط القلب بمحمد رسول الله ﷺ ، فيتوجه البدن إلى الجهة الواحدة ، وتتوجه الروح إلى الجهة الواحدة : حصل للإنسان استعداد الاستفاضة من الحضرة الوحدانية ، ومن ههنا تُعرف أنَّ المناسبة بين المفيض والمستفيض، فما يتعلق بالاستفاضة شرط ، وقد ورد في بعض الأحاديث على ما أثبت المشايخ في كتبهم : أن الشيخ في قومه كالنَّبيِّ في أمته ، فلا بد للمريد أن يتوجه إلى شيخه ، يربط قلبه معه ، ويتحقق أنَّ الفيض لا يجيء إلّا بواسطته ، وإن كان الأولياء كلهم هادين مهديين ، يعتقد بكلهم ويدعو لهم ، لكن استمداده الخاصّ واستفاضته يكون من روحانية شيخه ، ويعلم أن استمداده من شيخه استمداده من النَّبيِّ ﷺ ، فإن شيخه متعلق مستمد بشيخه ، وشيخه بشيخه ـ أيضاً ـ هكذا إلى رسول الله ﷺ ، فهو مستمد بالحقيقة من رسول الله ﷺ ، وهو من الحق جلَّ اسمُه : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح : ٢٣] .

فالربط بالقلب مع الشيخ أصل كبير في الاستفاضة ؛ بل هو أصل الأصول ولهذا بالغ المشايخ - قدَّسَ الله أرواحهم - في رعاية هذا الشرط حتى قال نجم الدين الكبرى قدس الله سره : إنه الأستاذ بالنسبة إلى الأدوات في صنعة المرآة ، فكما أن المطرقة والسَّندان والمنفخ والفحم والنار وغيرها من الآلات إذا اجتمعت ، ولا يكون ثمة أستاذ يصنع المرآة لا يتحقق وجود المرآة ، كذلك الشرائط الثمانية الجنيدية للخلوة ، لا يتصفى بها مرآة القلب بدون ربط القلب مع الشيخ ، وقد جربناها فوجدناها كما قال قُدِّس سرُّه .

وأكثر المريدين إذا انقطعوا عن الفيض والترقي لا ينقطعون إلَّا مِنْ هذه الجهة ، أعني عدم ربط القلب بالشيخ بالتسليم والإذعان ، والمحبة الصادقة والاعتقاد ، فالاعتراض يسد باب الفيض ، ولهذا قال المشايخ في أدب المريد : أن يكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل ، يتصرف فيه بما يرى المصلحة .

[فإنَّ الرابطة قد ذكرها وأكَّد عليها كثير من الأجلّاء والعلماء والأكابر ، لا يُحْصى عددهم ، قدَّس الله أسرارهم ، وبعد الذي ذكرنا وبيَّنا] .

إنْ قيل : كيف يتصور النَّبيَّ ﷺ من لم يره أصلاً ، وكيف يحضره في قلبه ؟

فالجواب : [يكون هذا] بمطالعة شمائله الشريفة ، وضبط حليته المنيفة ، من كتب الأحاديث الصحيحة ، وقد ألَّف العلماءُ الكتُبَ الكثيرة في هذا الشأن ، وبيَّنوها بأوضح بيان ، وإن كان ممن تشرف بزيارة قبره عليه الصلاة والسلام ، فيتصور في نفسه كأنه حاضر في الروضة

المطهرة ، ومشغول بزيارته ، فهذا أسهل من الأول .

ومن الآداب المهمّة في هذا المقام : الاحتراز من الدُّعاء والإلحاح لطلب ظهوره ﷺ بصورته له عياناً ؛ بل ينبغي أن يكتفي بالملاحظة الإجمالية والاستحضار بقدر الامكان ، مع ربط القلب بحضرته العليَّة بالمحبة الكاملة ، وهذا القدر يكفي في تحصيل المناسبة الروحانية ، وإن لم يراع هذا الأدب يُخشَ عليه من تشوش الحال ، وغلبة الاستغراق ، فليحترز منه ؛ ثم إذا حصل الاستعداد التام بمحبَّته واتِّباعه عليه الصلاة والسلام وترقي الحال والمقام ، عسى أن تنجلي له روحانيته العلية ، فيحصل المرام ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو الكريم المنعَام .

ومن هاهنا قد ظهر وجه الاحتياج إلى انتساب المرشد الكامل الحيّ ، الذي هو نائب الحقّ والرسول ، وخليفتهما المأمور بالإرشاد ، وذلك لأنَّ الرابطة وإن أمكن كونها للنَّبيِّ ﷺ بالوجه المذكور ، لكن فيه من الصعوبة والمشقة ما لا يخفى ، لا سيما بالنسبة إلى السالكين المبتدئين ، فإنهم فضلاً عن قلّة اقتدارهم وضعف عزائمهم على إحضار شخصه عليه الصلاة والسلام بتمامه في قلوبهم ، وتصوره بحليته الشريفة بكمالها في أذهانهم ، يحتاجون إلى الوعظ والنصيحة ، وتعليم سائر آداب الطريقة ظاهراً بالمقال ، كما يحتاجون إلى التربية والترقية باطناً بالحال ، وتحصيل تلك الأمور من الحضرة النبوية بالنسبة إليهم متعسرة ؛ بل متعذرة بحسب العادة ، وحكم حجاب البشرية ؛ فتفضل الله سبحانه وتعالى بنصب الخلفاء والنوّاب المرشدين ، تسهيلاً على عباده المستعدين للسلوك إلى جنابه الأقدس ، وكرمه المقدَّس .

وقد نصَّ العارفون في تصانيفهم على : أنَّ العالَمَ لا يخلو عنهم ما دامت الشريعة المحمدية باقية ، وساحة الدِّين معمورة إلى يوم القيامة

- إن شاء الله الرحمن - ولكن الطالب قد لا يتيسر له الوصول إليهم ، إمّا بسبب بعد المسافة والمكان ، أو لعدم وقوفه وإطّلاعه عليهم أصلاً ، فحينئذٍ يسوغ له التوجه إلى روحانيته ﷺ على الوجه المذكور ، مع رعاية الشروط الآتية ، وهي :

أن يتوب إلى الله تعالى أوّلًا من كلِّ ذنب ، بالتوبة الصّادقة النّاصحة ، عازماً على أن لا يعود إليه أبداً ، وبعد أن صحح عقيدته على مذهب أهل السُّنّة والجماعة ، يتمسك بالشريعة المُطَهَّرة ، على وجه العزيمة ، قولًا ، وفعلاً ، وعملاً ، واعتقاداً ، ويراعي التقوى في جميع أموره ، على حسب الطاقة والإمكان .

قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] .

فإنَّ التقوى أصل هذه الطريقة وأساسها ، وسبب ظهور الرابطة وجلاءها ، فإنها تظهر برعايتها ، وتختفي بإخلال شيء فيها ، فهي في الحقيقة ميزان التقوى ومعيار حصول رضا الله تعالى ، فإذا مهّدَ هذا الأساس وأحكمه وأيّده ، يتوجه إلى الروحانية المقدَّسة النبوية متوسِّلاً بها ، ومستشفعاً منها لتحصيل رضا الله تعالى ، حال كونه مواظباً على تلاوة القرآن العظيم ، قارئاً منه كل يوم مقدار ما تيسر له ، جهراً بالخشوع والتعظيم ، إلّا أنه لا يقرأ منه أقل من حزب واحد ، والزيادة لا حَدَّ لها ، وإن لم تكن له قدرة على التلاوة ، فحينئذٍ يلازم كلمة التوحيد ، التي هي زبدة القرآن وخلاصته ، وأفضل الذكر وأعظمه ، فيقرؤها كل يوم جهراً أو خفياً ، قَدْرَ ما يسَّرَ الله له ، نافياً من يمينه ومثبتاً إلى شماله ، كما ثبت تلقينها عن الرسول ﷺ بالخبر المنقول لابن عمه وخليفته ، زوج فاطمة البتول رضي الله تعالى عنهما ، لكنه لا يقرؤها أقل من ثلاثمائة مرَّة ، وأما الزيادة فلا حدَّ لها .

□ قال الشُّهروردي - قُدِّس سرُّه - في الباب السابع والعشرين من

« العوارف »: إن السالكَ قد يصل إلى مرتبة ذكر الذات التي هي أعلى مراتب الذكر بتلاوة القرآن فقط ، إذا أكثر من تلاوته ، واجتهد في مواطأة القلب مع اللسان ، كما إنه يصل إليها بمداومة كلمة التوحيد ؛

□ وقال ـ أيضاً ـ في الباب الأخير منه : ولا بد للمبتدىء أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه ، فيحفظ منه قدر ما يتيسر أو جميعه ، ولا يُصغي إلى قول من يقول : ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن ، فإنه يجد بالقرآن وبتلاوته في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى ، ثم فصَّل فيه الكلام فليراجع للتحقيق إليه .

□ ويقرأ كل يوم بعد صلاة العصر مائة مرة « أستغفر الله العظيم » وعقب هذا مائة مرة : « اللَّهُمَّ صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

ويكتفي بما ذكر من التلاوة والأذكار فقط ، ولا يجوز له الاشتغال بغيرها من الأوراد والأدعية المختلفة أصلاً ، سواء كانت مأثورة ، أو منقولة عن المشايخ الكبار ، فإنها تشوش الحال ، وتخالف ترتيب السلوك .

ويجتهد ـ أيضاً ـ في تقليل الغِذاء عن عادته الأصلية شيئاً فشيئاً بالتدريج ، فإنَّ الجوع غذاء الأرواح ، ومفتاح أبواب الملكوت ، كما أن كَثْرَةَ الأكل والشبع سدَادُها ومغلاقها ، فأقل ما يكون بصوم يومين أو ثلاثة أيام من كل أسبوع ، مع رعاية قلَّة الأكل في الإفطار والسحور ، ولو صام صيام داود عليه السلام لكان أحسن ، كما ورد في الحديث :

« أَحَبُّ الصِّيام إِلَى الله صِيَامُ دَاوُدَ ، كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفطِرُ يَوْماً ، وَأَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى الله صَلاَةُ دَاوُدَ عليه السلام ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ »[1] .

---

(١) أخرج بنحوه البخاري ، رقم : (١٠٧٩) ومسلم ، رقم : (١١٥٩) .

وينبغي أن لا يغفل عن إحياء الليالي بصلاة التهجد والتلاوة ، ولا ينسى صلاة الإشراق والضحى والأوابين ـ أيضاً ـ ولو ترك كثرة الكلام ولازم الوحدة والعزلة عن الأنام ، لكان أحسن من كلِّ الوجوه وأتم للمرام .

وقد قيل : الوِحدة مُنْيَةُ الصديقين ، وقرة عيون السالكين ، لأنها تصفِّي القلوب عن الكدورات ؛ وعكسها يكدر الأوقات ، وبها نالوا ما نالته الأبدال والأوتاد .

وإن استولت الخواطر والوساوس على قلبه ، فلا يلتفت إليها ولا يشتغل بها ؛ بل ينبغي أن يصرف باله نحو الرابطة ، فيندفع ذلك بعناية الله تعالى وهذه ـ أيضاً ـ من جملة فوائدها . . ثم يستمر على هذه الأعمال بلا فتور وملال ، ويلازم باب الله بالعجز والافتقار ، حتى يفتح له باب العطاء والنوال ، أو يموت على هذا الحال :

قال تعالى : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحِجْر : ٩٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وبهذه الشروط والآداب بعينها قالوا : يجوز أن يتوجه ـ أيضاً ـ إلى روحانية وليٍّ من الأولياء المشهورين بالإرشاد كالشيخ « عبد القادر الكيلاني » ومولانا « جلال الدِّين الرومي » ومولانا « خالد النقشبندي » وغيرهم قدس الله أرواحهم ، فيختار واحداً منهم ، ثم يتوجه إلى روحانيته ويتصوره في ذهنه بما يعرفه من أوصافه بقدر الإمكان ، خصوصاً عند الذكر ، وتلاوة القرآن ، يتخيل في نفسه كأنه حاضر لديه ، وهو ناظر إليه ، وإن كان بجوار قبره يلازم زيارته ، ويقرأ الفاتحة والإخلاص ،

والصلاة على النبي ﷺ ويهدي ثوابها إليه ، فيسترشد ويستمد منه في تحصيل رضا الله تعالى .

فبهذه الطريقة يمكن أن تحصل المناسبة الروحانية بينهما ، ويصل إلى المطلوب ، ويقال لمن تربى من الروحانية « أُوَيْسِيٌّ » نسبة إلى أويس بن عامر القرني رضي الله عنه ، فإنه أدرك النبي ﷺ ولم يره ، فتربى من روحانيته في الحياة ، وبعد الوفاة .

وقد تربى بهذه الطريقة جمٌّ غفير من الأولياء ، كأبي يزيد البسطامي ، وأبي الحسن الخرقاني ، والشيخ عطار ، وإسماعيل تلوي ، والشيخ أحمد نامقي ، وغيرهم ، على ما ذكروهم في طبقاتهم ومناقبهم قدس الله أسرارهم . .

وهذه المسألة تشبه مسألة التيمم ، فكما أن المحدث إذا أراد إقامة الصلاة ولم يجد الماء فيتيمم ويصلي به ، حتى يصل إلى الماء ولا يترك الصلاة والعبادة .

كذلك الطالب الصادق إذا أراد السلوك في طريق أولياء الله تعالى ولم يجد مرشداً كاملاً حياً فلا يتعطل عن الأعمال والمجاهدة ؛ بل يتوجه إلى روحانيتهم ويستمد ويستفيض منهم ، ولا يشك في إمدادهم وإرشادهم له ، وإفاضتهم عليه ، فإنّ تصرفاتهم في عالم البرزخ باقية ، كما في الحياة الدنيوية ، بل أعلا وأقوى منها ، قال تعالى :

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس : ٦٤] .

روي في الأثر : « المؤمنون لا يموتون بل ينقلون من دار إلى دار »[١] .

---

(١) تحفة العشاق للشيخ حيدري زادة ، ص : (٢ ـ ٢٥) بتصرف .

الفصل الثامن عشر

□ ولتمام الفائدة وحكم المناسبة ، أنقل لكم ما نقله لنا صاحب هذه الرسالة مقالة للإمام فخر الدين الرازي في كتابه المسمى بـ « المطالب العالية » تتعلق بزيارة القبور والموتى ، وما لها من فوائد تعود على الزائر ، فيقول الإمام في كتابه المذكور :

« سألني بعض أكابر الملوك بيان كيفية الانتفاع بزيارة الموتى والقبور ، وهو الملك محمد بن سام بن الحسين الغوري ، وكان رجلاً حسن السيرة ، مرضي الطريقة ، شديد الميل إلى العلماء ، قوي الرغبة في مجالسة أهل الدِّين والعقل ، فكتبت له فيه رسالة وأنا أذكر ههنا ملخص ذلك الكلام ، فنقول :

الكلام فيه مبني على مقدمات :

المقدمة الأولى :

إنّا قد دللنا على أنَّ النفوس [أي : الأرواح] البشرية باقية بعد مفارقة الأبدان .

المقدمة الثانية :

إنَّ تلك النفوس التي فارقت أبدانها ، أقوى من هذه النفوس المتعلقة بالأبدان من بعض الوجوه ، وهذه النفوس أقوى من تلك من وجه آخر ، أما إن النفوس المفارقة أقوى من هذه النفوس من بعض الوجوه : فهو :

أنَّ تلك النفوس لمّا فارقتْ أبدانها ، فقد زال الغِطاء والوطاء ، وانكشف لها عالم الغيب وأسرار منازل الآخرة ، فصارت العلوم التي كانت برهانية عند التعلق بالأبدان ، ضرورية بعد مفارقة الأبدان ، وكانت تلك النفوس الروحانية ، حين كانت النفس بدنية تحت غبار وبخار ، فلما زال البدن أشرقت تلك النفوس وتجلَّتْ وتلألأت ، فحصل للنفوس المفارقة عن الأبدان بهذا الطريق نوع من الكمال .

وأمّا أنَّ النفوس المتعلقة بهذه الأبدان أقوى من تلك النفوس المفارقة من وجه آخر ، فلأنَّ آلات الكسب والطلب باقية لهذه النفوس ، فهذه النفوس بواسطة الأفكار المتلاحقة والأنظار المتعاقبة ، تستفيد في كل يوم علماً جديداً ، وبحثاً زائداً ، فهذه الحالة غير حاصلة للنفوس المفارقة .

المقدمة الثالثة :

إنَّ تعلق النفوس بأبدانها تعلق يشبه العشق الشديد والحب التامّ ، ولهذا السبب : أنَّ كل شيء يُطلب تحصيله في الدنيا ، فإنما يطلب ليتوصل به إلى إيصال الخير والراحة إلى هذا البدن ، وإذا ثبت هذا ، فإذا مات الإنسان ، وفارقت النفس هذا البدن ، فذلك الميل يبقى ، وذلك العشق لا يزول ، فتبقى تلك النفس عظيمة الميل إلى ذلك البدن ، عظيمة الانجذاب إليه ، لا سيّما على المذهب الذي نصرناه ، من أنَّ النفوس الناطقة مدركة للجزئيات ، وإنها تبقى موصوفة بهذا الإدراك بعد الموت ، فإذا عرفت هذه المقدمات فنقول :

إنَّ الإنسان إذا ذهب إلى قبر ، قويُّ النفس ، كامل الجوهر ، شديد التأثير ، ووقف هناك ساعة تأثرت نفسه من تلك التربة ، وحصل لنفس هذا الزائر تعلق بتلك التربة ، وقد عرفت أنَّ لنفس ذلك الميت تعلقاً بتلك

التربة أيضاً فحينئذ يحصل لنفس هذا الزائر الحي ، ولنفس ذلك الإنسان الميت ملاقاة ، بسبب اجتماعهما على تلك التربة ، فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين ، وضعتا بحيث ينعكس الشعاع من كلٍّ واحدة منهما إلى الأخرى ، فكل ما حصل في نفس هذا الزائر الحي من المعارف البرهانية ، والعلوم الكسبية ، والأخلاق الفاضلة ، من الخضوع لله تعالى ، والرضا بقضاء الله ، ينعكس معه نور إلى روح ذلك الإنسان الميت ، وكل ما حصل في نفس ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة والآثار القوية الكاملة ، فإنه ينعكس منها نور إلى نور هذا الزائر الحيّ ، وبهذا الطريق تصير تلك الزيارة سبباً لحصول المنفعة والبهجة العظمىٰ لروح الزائر ، ولروح المزور ، فهذا هو السبب الأصلي في شرعية الزيارة ، ولا يبعد أن يحصل فيها أسرار أخرى أدقّ وأحقّ ، مما ذكرناه ، وتمام العلم بالحقائق ليس إلّا عند الله تعالى[1] .

□ □ □

---

(١) تحفة العشاق ، ص : (٢٦ ـ ٢٨) .

الفصل التاسع عشر

□ وبعدما نقل لنا صاحب الرسالة[1] مقالة الفخر الرازي ، في بيان كيفية الانتفاع ، أو مدى فائدة زيارة الموتى وقبور الصالحين ، عاد ليذكر لنا بعض الآداب المهمة ، التي تتعلق بما نحن بصدده ، وسأنقلها ـ أيضاً ـ هنا حتى لا يفوتنا ذلك الخير العظيم ، فلعلّ الله تعالى يوفّقنا للتأدب بها ، والعمل بمقتضاها ، فنحظى برضى الله تعالى ، والفوز بالقبول عنده ، إنه على كلّ شيء قدير ؛ فيقول صاحب الرسالة :

« .. ومن أهم المهمّات وأعظم الشرائط في هذا الباب : إخلاص النّيّة وقصرها على تحصيل رضا الله تعالى لا غير ، فإنَّ العبادة مع الإخلاص من جملة الفرائض في الدين ، قال تعالى :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البيّنة : ٥] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر : ٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيا يُصِيبُها أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُها فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »[2] .

---

(١) تحفة العشاق .

(٢) أخرجه البخاري ، رقم : (١) ومسلم ، رقم : (١٩٠٧) .

فالواجب على السّالك عند شروعه في هذه الأعمال تصفية النِّيَّة ، وإخلاصها لله ، وتفريغ القلب عمّا سواه أولًا ، ثم يقول بلسانه وقلبه :

« إلٰهي أَنْتَ مَقْصُودِي وَرِضاكَ مَطْلُوبِي » .

ولا يمزجه كلاماً آخر ، ولا يضمر في قلبه حاجة من الحاجات الدنيوية والأخروية ، سوى طلب الرضا وأداء وظائف العبودية ، ولا يقصد حصول كشف وكرامة ، ولا الاطلاع على المغيبات ، حتى لو ظهر له شيء منها بلا قصد لا يلتفت إليه ، ولا يشتغل به ؛ بل ينبغي أن يفرَّ منه إلى الله تعالى ، خوفاً من أن يكون ذلك فتنة واختباراً في إخلاصه ، ولو اشتغل به وركن إليه ينسد عليه باب الترقي والزيادة في السلوك ؛ بل ربما يكون سبباً لمردوديته عن الطريقة وخذلانه وخسرانه من حيث لا يشعر ، فليحترز منها غاية الاحتراز !

قال السُّهروردي ، نقلاً عن الجنيد ـ قدس الله سرهما ـ إنه قال : أكثر العوايق والحوايل والموانع من فساد الابتداء ، فالمريد في أوّل سلوك هذا الطريق يحتاج إلى إحكام النيّة ، وإحكام النيّة تنزيهها من دواعي الهوى ، وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل حتى يكون خروجه خالصاً لله تعالى .

ولما لزم الإمام أبو حامد الغزالي الخلوة أربعين يوماً ، رجاء لظهور ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه ، عملاً بما بلغه من الخبر : « من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ولم ير ذلك ، تعجَّب من حاله ! فرأى في منامه أنه قيل : إنك لم تخلص لله ، وإنما أخلصت لطلب الحكمة .

وكذلك لا يقصد بأعماله حصول أمر من الأمور أو عدم حصوله فلا يدعو لجلب منفعة ، أو لدفع مضرّة ، سواء كان لنفسه أو لغيره ؛ بل

يفوِّض الأمور إلى الله ويسلِّمها إليه حتى يتصرف في ملكه كيف ما يشاء ، فإنه هو العليم الحكيم يعلم حوائج عباده ويدبرها بمقتضى حكمته ومشيئته .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وقال جلَّ جلاله : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] .

روى في تفسير اللباب عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن إبراهيم عليه السلام قال حين أوثقوه ليلقوه في النار قال : « لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك » ثم رموا به في المنجنيق إلى النار ، فاستقبله جبريل عليه السلام فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . قال جبريل عليه السلام فاسأل ربك . فقال إبراهيم عليه السلام : « حسبي من سؤالي علمه بحالي » .

وفي الحديث القدسي « يقول الله عز وجل : مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ »[1] .

ولكن لا مانع له أن يتشبث بالأسباب الظاهرية ، ويستعمل جوارحه وسائر قواه في تدبير أموره البشرية ، ويتخذ وسائل في جلب المنفعة ودفع المضرَّة ، مراعياً فيهما الحدود الشرعية ، بحيث لا يشغله شيء منها عن ذكر الله تعالى وعباداته ، بلا جزع وشكاية إلى الله تعالى ، كما قال عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون : ٩] .

---

(١) أخرجه الترمذي ، رقم : (٢٩٢٧) .

فإذا أصابه فقر ومرض ـ مثلاً ـ يتشبث في دفعها بالأسباب الظاهرية ، كما ذكرنا ، فيتخذ صنعة أو تجارة ، ويراجع الأطباء ويستعمل الأدوية ، ثم يصبر عليه من غير جزع وشكاية ، وكذلك إذا تسلط عليه عدوٌّ بالسلاح ـ مثلاً ـ يقابله بمثل ما تسلط عليه ، ويجتهد في دفع شرِّه وكيده ، بالأسباب الظاهرية ، ولكن لا يدعو الله عليه بقراءة الأسماء والأحزاب ، لئلا ينخرط في سلك الملحدين اللاعبين بأسماء الله ربِّ العالمين ؛ بل ينبغي أن يصبر على هذه البلية ، ويفوِّض الأمر إلى الله تعالى .

وأما في الأمور الباطنية ، فإذا عرض له ـ مثلاً ـ قبض في الأحوال ، أو كسل في الأعمال ، فلا يبادر إلى الدعاء لجلب البسط أو لتسهيل العمل ؛ بل ينبغي أن يفتش أحواله ويحاسب نفسه ، هل صدر عنها ذنب أو عمل يخالف الشريعة والتقوى ، حتى أوجب عليه هذه العقوبات ؟ فإذا اطّلع على شيء من ذلك يتوب منه إلى الله في الحال ، ويبادر إلى إصلاح أعماله وأفعاله بالتطبيق والتوفيق إلى الشريعة المطهرة ، فإن اندفع يشكر الله على إنعامه وإحسانه عليه ، وإلَّا يصبر عليه ويصرف جهده في إبقاء وظائف عبوديته من غير جزع وشكاية ، حتى يظهر له سر ذلك ، أو تنقضي مدة الابتلاء ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى : ٣٠] وهذه الأمور من دقائق السلوك لا تعرف بمجرد الأقوال تفاصيلها ، ولكن العبد إذا استقام في مجاهدته بالإخلاص التام مع ملاحظة الرابطة على الدوام يُعرِّفه الحق سبحانه وتعالى تلك الدقائق والآداب المتعلقة بحضرته العلية كما قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

فحينئذٍ يأخذ حظّاً بقدر استعداده من قوله ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي »[1] ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩][2] .

□ □ □

(١) أخرجه العسكري في « الأمثال » عن علي رضي الله عنه مرفوعاً [تمييز الطيب من الخبيث ، ص : ١٢] .

(٢) تحفة العشاق ، ص : (٢٨ ـ ٣٢) بتصرف .

الفصل العشرون

وأخيراً أنقل للقارئ العزيز قولاً جميلاً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أرجو أن يكون فيه الفصل فيما نحن بصدده يبين فيه بشكل علمي ومنطقي مدى تأثير تخيل صورة الرجل الصالح في تربية سالك طريق الحق والترقي بالمزيد في الوصول إلى محبة الله سبحانه لتحصيل الإخلاص في الأعمال جميعها فيكون الحركات والسكنات والمزح والجد حينئذٍ لله تعالى وكما لا يخفى، الأمور بمقاصدها

((ومما يحقق هذه الأمور أن المحب يجذب , والمحبوب يُجذب . فمن أحب شيئاً جذبه إليه بحسب قوته . ومن أحب صورة جذبته تلك الصورة إلى المحبوب الموجود في الخارج بحسب قوته . فان المحب علته فاعلية , والمحبوب علته غائية , وكل منهما له تأثير في وجود المعلول , والمحب إنما يجذب المحبوب بما في قلب المحب من صورته التي يتمثلها , فتلك الصورة تجذبه بمعنى انجذابه إليها , لا إنها هي في نفسها قصد وفعل , فان في المحبوب من المعنى المناسب ما يقتضي انجذاب المحب إليه كما ينجذب الإنسان إلى الطعام ليأكله. والى امرأة ليباشرها , والى صديقه ليعاشره وكما تنجذب قلوب المحبين لله ورسوله إلى الله ورسوله والصالحين من عباده لما اتصف به سبحانه من الصفات التي يستحق لأجلها أن يُحب ويعبد ..

بل لا يجوز أن يحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده فكل ،محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته والرب تعالى هو الذي يجب

أن يحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته و (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فإن محبة الشيء لذاته شرك . فلا يحب لذاته إلا الله فإن ذلك من خصائص إلهيته فلا يستحق ذلك إلا الله وحده . وكل محبوب سواه إن لم يحب لأجله أو لما يحب لأجله فمحبته فاسدة .

والله تعالى خلق في النفوس حب الغذاء، وحب النساء، لما في ذلك من حفظ الأبدان وبقاء الإنسان فإنه لولا حب الغذاء لما أكل الناس ففسدت أبدانهم ولولا حب النساء لما تزوجوا فانقطع النسل، والمقصود: بوجود ذلك بقاء كل منهم ليعبدوا الله وحده ويكون هو المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره .

وإنما تحب الأنبياء والصالحون تبعاً لمحبته فإن من تمام حبه حب ما يحبه، وهو يحب الأنبياء والصالحين، ويحب الأعمال الصالحة، فحبها لله هو من تمام حبه، وأما الحب معه فهو حب المشركين الذين يحبون أندادهم كحب الله، فالمخلوق إذا أحب الله كان حبه جاذباً إلى حب الله، وإذا تحاب الرجلان في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، كان كل منهما جاذباً للآخر إلى حب الله، كما قال تعالى :

" حقت محبتي للمتحابين في , وحقت محبتي للمتجالسين في، وحقت محبتي للمتباذلين في . وان لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بقربهم من الله، وهم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال يتباذلونها ولا أرحام يتواصلون بها ان لوجوههم لنوراً وانهم لعلى كراسي من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس "

فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبك لله، كما إذا ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله والمرسلين وأصحابهم الصالحين وتصورهم في قلبك فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله المنعم عليهم، وبهم، إذا كنت تحبهم لله فالمحبوب لله، يجذب محبة الله، والمحب لله إذا أحب شخصاً لله فإن الله هو محبوبه، فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى , وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله .

وهكذا إذا كان الحب لغير الله كما إذا أحب كل من الشخصين الآخر بصورة : كالمرأة مع الرجل فإن المحب يطلب المحبوب والمحبوب يطلب المحب، بانجذاب المحبوب، فإذا كانا متحابين صار كل منهما جاذباً مجذوباً من الوجهين، فيحب الاتصال، ولو كان الحب من احد الجانبين، لكان المحب يجذب المحبوب والمحبوب يجذبه، لكن المحبوب لا يقصد جذبه، والمحب يقصد جذبه وينجذب .

وهذا " سبب التأثير في المحبوب " أما تمثل يحصل في قلبه فينجذب، وأما أن ينجذب بلا محبة : كما يأكل الرجل الطعام ويلبس الثوب ويسكن الدار ونحو ذلك من المحبوبات التي لا إرادة لها .

وأما "الحيوان " فيحب بعضه بعضا بكونه سببا للاحسان إليه وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، لكن هذا في الحقيقة إنما هو محبة الإحسان، لا نفس المحسن ولو قطع ذلك لأضمحل ذلك الحب، وربما أعقب بغضاً، فإنه ليس لله عز وجل .

فإن من أحب أنساناً لكونه يعطيه، فما أحب إلا العطاء، ومن قال : إنه يحب من يعطيه لله فهذا كذب ومحال وزور من القول، وكذلك من أحب إنساناً لكونه ينصره، إنما أحب النصر لا الناصر، وهذا كله من إتباع ما تهوى الأنفس، فإنه لم يحب في الحقيقة إلا ما يصل إليه من جلب منفعة أو دفع مضرة، فهو إنما أحب تلك المنفعة ودفع المضرة وإنما أحب ذلك لكونه وسيلة إلى محبوبه، وليس هذا حباً لله ولا لذات المحبوب .

وعلى هذا تجري عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض، وهذا لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم، بل ربما أدى ذلك إلى النفاق والمداهنة، فكانوا في الآخرة من الإخلاء الذين بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، وإنما ينفعهم في الآخرة الحب في الله ولله وحده، وأما من يرجو النفع والنصر من شخص ثم يزعم أنه يحبه لله فهذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال .

وإنما ينفع العبد الحب لله لما يحبه الله من خلقه كالأنبياء والصالحين لكون حبهم يقرب إلى الله ومحبته، وهؤلاء هم الذين يستحقون محبة الله لهم .

ونبينا كان يعطى المؤلفة قلوبهم ويدع آخرين هم أحب إليه من الذي يعطي، يكلهم إلى ما في قلوبهم من الإيمان وإنما كان يعطي المؤلفة قلوبهم لما في قلوبهم من الهلع والجزع، ليكون ما يعطيهم سبباً لجلب قلوبهم إلى أن يحبوا الإسلام فيحبوا الله، فكان مقصوده بذلك دعوة القلوب إلى حب الله عز وجل وصرفها عن ضد ذلك، ولهذا كان يعطي أقواماً خشية لأن يكبهم الله على وجوههم في النار فمنعهم بذلك العطاء عما يكرهه منهم فكان يعطي لله ويمنع لله وقد قال : " من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان " وفي صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" إني والله إنما أنا قاسم لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً ولكن أضع حيث أمرت "

وصورة المحبوب المتمثلة في النفس يتحرك لها المحب ويريد لها ويحب ويبغض ويبتهج وينشرح عند ذكرها من أي جنس كانت، فتبقى هي كالآمر الناهي، ولهذا يجد في نفسه كأنها تخاطبه بأمر ونهي وغير ذلك كما يرى كثير من الناس من يحبه ويعظمه في منامه وهو يأمره وينهاه ويخبره بأمور.

والمشركون تتمثل لهم الشياطين في صور من يعبدونه تأمرهم وتنهاهم .

والقائلون بالشاهد والمنتسبون إلى السلوك يقول أحدهم : إنه يخاطب في باطنه على لسان الشاهد فمنهم من يصلي بالليل وذاك بإزائه ليشاهده في الضوء ومنهم من يشاهده في حال السماع في غيره، ويظنون أنهم يخاطبون ويجدون المريد في قلوبهم بذلك، وذلك لأنهم يتمثلونه في أنفسهم، وربما كان الشيطان يتمثل في صورته، فيجدون في نفوسهم خطابا من تلك الصورة، فيقولون خوطبنا من جهته، وهذا وإن كان موجوداً في المخاطب فمَن المخاطب له ؟

فالفرقان هنا، فإنما ذلك المخاطب من وسواس الشيطان والنفس.

وقد يخاطبون بأشياء حسنة رشوة منه لهم، ولا يخاطبون بما يعرفون أنه باطل، لئلا ينفرون منه، بل الشيطان يخاطب أحدهم بما يرى أنه حق، والراهب إذا راض نفسه فمرة يرى في نفسه صورة التثليث، وربما خوطب منها لأنه كان قد يتمثلها قبل ذلك، فلما انصقلت نفسه بالرياضة ظهرت له، والمؤمن الذي يحب الله ورسوله يرى الرسول في منامه بحسب إيمانه، وكذلك يرى الله تعالى في منامه بحسب إيمانه، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

ولهذا كثير من أهل الزهد والعبادة يكون من أعوان الكفار ويزعم أنه مأمور بذلك، ويخاطب به ويظن أن الله هو الذي أمره بذلك، والله متره عن ذلك وإنما الآمر له بذلك النفس والشيطان وما في نفسه من الشرك، إذ لو كان مخلصاً لله الدين لما عرض له شيء من ذلك، فإن هذا لا يكون إلا لمن شرك في عبادته، أو عنده بدعة ولا يقع هذه لمخلص متمسك بالسنة البتة .

وإذا كانت " الرؤيا " " على ثلاثة أقسام "

رؤيا من الله

ورؤيا من حديث النفس

ورؤيا من الشيطان

فكذلك ما يلقى في نفس الإنسان في حال يقظته " ثلاثة أقسام " ولهذا كانت الأحوال " ثلاثة " رحماني , ونفساني , وشيطاني .

وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف " ثلاثة أصناف " ملكي ونفسي وشيطاني , فإن الملك له قوة والنفس لها قوة , والشيطان له قوة وقلب المؤمن له قوة فما كان من الملك ومن قلب المؤمن فهو حق وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل .

وقد اشتبه هذا بهذا على طوائف كثيرة فلم يفرقوا بين أولياء الله وأعداء الله بل صاروا يظنون في من هو من جنس المشركين والكفار — أهل الكتاب من وجوه كثيرة — إنه من أولياء الله المتقين . والكلام في هذا مبسوط في موضع آخر .

ولهذا في هؤلاء من يرى جواز قتال الأنبياء ومنهم من يرى أنه أفضل من الأنبياء إلى أنواع أخر . وذلك لأنه حصل لهم من الأنواع الشيطانية

والنفسانية ما ظنوا أنها من كرامات الأولياء فظنوا أنهم منهم فكان الأمر بالعكس وأصل هذا أنهم تعبدوا بما تحبه النفس وأما العبادة بما يحبه الله ويرضاه فلا يحبونه ولا يريدونه وحده ويرون أنهم إذا عبدوا الله بما أمر به ورسله حط لهم عن منصب الولاية فيحدثون محبة قوية وتألهاً وعبادة وشوقاً وزهداً ولكن فيه شرك وبدعة .

ومحبة " التوحيد " إنما تكون لله وحده على متابعة رسوله ؛ كما قال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) فلهذا يكون أهل الإتباع فيهم جهاد ونية في محبتهم يحبون لله ويبغضون له وهم ملة إبراهيم والذين معه (إذا قالوا لقومهم إنا برآء منكم , ومما تعبدون من دون الله , كفرنا بكم وبدى بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وأولئك محبتهم فيها شرك وليسوا متابعين للرسول ولا مجاهدين في سبيل الله , فليست هي المحبة الاخلاصية فإنها مقرونة بالتوحيد ولهذا سمي أبو طالب المكي كتابه " قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد " والله سبحانه أعلم [1]

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية المجلد العاشر ص ٦٠٦-٦١٤

الخاتمة

☐ .. ولا تعتبوا عليَّ أن أقول في « الختام » كما ذكرتُ في الابتداء : أكاد لا أصدق عيني بما قرأت في كتاب : « هذا والدي » لشيخٍ كمْ سمعتُ منه وهو يقول : « لا يعود الإسلام إلَّا على جسر من التصوف » أجل ؛ تصوف خال من الشوائب والمخالفات الشرعية ، والاستغلال والتسلط على أموال الناس ورقابهم ، ثم يقوم هذا الشيخ نفسه فيتهم شيخاً من شيوخها الأجلاء ، بما لا يليق بعوام الناس ، فضلاً عن خواصِّهم ، ويحكم عليه بقضية من غير استناد على شهادة وبيِّنة مقبولة شرعاً .

☐ ويتكلم ـ أيضاً ـ على أدب من آدابهم من دون الاعتماد على نصٍّ أو دليل شرعيٍّ متفق عليه ، سوى الاعتماد على رأي وقول والده ـ رحمة الله عليه ـ في اجتهادٍ له يحتمل الخطأ والصواب .

☐ ورغم ما كنت أفقد المادَّة والمعنى ، وأعرف من نفسي عدم الأهلية والكفاءة وقلة البضاعة ، خضت غمار بحر أجهل ساحله ، وصحراء مترامية الأطراف لا أدري طرائقها ومسالكها ، وسرتُ في ليلٍ قد أفلتْ نجومه وكواكبه ، ولكن اعتمدتُ على ربٍّ كريم ، ما ردَّ سائله ، واسترحت إلى قول شاعر وتغنيتُ به وقلت :

لِـي سَـادَةٌ مِـنْ عِـزِّهِـمْ   أَقْـدامُهُـمْ فَـوْقَ الْجِبَـاهْ

إنْ لَـــمْ أَكُـــنْ مِنْهُـــمْ فَلِـي فِـي حُبِّهِـمْ عِـزٌّ وَجَـاهُ[1]

□ وعقلتُ بعيري ، وتوكلتُ على ربِّي ، وهو حسبي ، وبدأت بالتنقيب في أعماق سهول الرسائل والمكتوبات ، والكشف عن بطون حقول الكتب والمخطوطات ، والحفر في مناجم الهوامش ومعادن الحواشي ، والتفتيش في خفايا مآثر القوم وأهل التجربة وأرباب الفن .

□ فعثرت ـ والحمد لله ربِّ العالمين ـ على جواهر من الكلام ، فنفضت غبارها ، ولآليء من الأقوال والنصوص فرممت أسوارها وجدرانها ، ودرر فريدة ، فأعدت عقدها ونظمها ، ولم تمض عشرون ليلة حتى شيدت الأركان وأحكمت بناءها ، فأجاءها المخاض وسررنا بوضعها واحتفلنا بميلادها .

نعم ، لا أقول صنعت شيئاً ؛ بل أقول : نقلت وجمعت كلمات العلماء وأقوال الفضلاء في أمر الرابطة ، وحكمهم وآراءهم فيها ، وكيف أكَّدوا عليها بأنها وسيلة من أهم الوسائل ، في تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس ومراقبة الله عزَّ وجلَّ ، وصنع مادَّة التقوى في القلوب ، والوصول إلى مقام الإحسان المعروف ، والإخلاص لله في الأعمال جميعها .

□ ومعاذ الله : أني قصدتُ بذلك أن أَمَسَّ أو أتجاوز الحدود ، أو أسيء الأدب مع الشيخ صاحب الكتاب ، أمده الله بعمره ، ووالده رحمة الله عليه ، بل أردت الرضاء ، ورمت السرور ، وتيقنت القبول منهم ، بما جاء عن سيدنا عمر بن الخطاب : « رَحِمَ اللهُ امْرَأً أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي » ولمَّا

---

(١) للشيخ شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني ، كنيته ، أبو مدين ، من مشاهير السادة الصوفية ، المتوفى بتلمسان سنة (٥٩٤) هجرية . رحمه الله تعالى [« عنوان التوفيق في آداب الطريق » المطبوع في آخر كتاب البرهان المؤيد ، ص (٢٠٧) دار الكتاب النفيس] .

أهْدَوْا له ذلك ، شكر الله وأثنى عليه ، بأن هناك في الأمة من يهدي إليه ذلك ، واعتبر ذلك دليلاً على أن الأمَّة لا زالت بخير وسلام .

□ والحمد لله : أنَّ هناك في المحبين وعلى الساحة من يشير بأصبع الأدب والاحترام إلى نقطة الضعف ، أو العثرة أو الكبوة ، فيما يقوله شيوخهم وأساتذتهم .

□ أجل ، هو شيخنا وأستاذنا ، وله حق التقدير والاحترام علينا ، ولقد تعلمنا في مدرسة الشيخ الخزنوي الشرعية ، تحت أيدي مهرة من العلماء العاملين المخلصين ، علمونا : أنْ نُجلَّ كبيرنا ، ونرحم صغيرنا ، ونعرف لعالمنا حقَّه ، وعلَّمونا العلم ، والسكينة والوقار معه ، والتواضع لمن علَّمونا .

وعلمونا قولَ النَّبيِّ ﷺ : « ثَلاثَةٌ لَا يَسْتَخِفُّ بِهِمْ إِلَّا مُنَافِقٌ ، ذُو الشَّيْبَةِ فِي الإِسْلاَمِ ، وَذُو الْعِلْمِ ، وإمَامٌ مُقْسِطٌ »[1] .

وقرأنا فيها كتباً قيمة ، نرجوا الله بأن تَطَبَّعَنا بطبائعهم وطبائع كُتَّابهم ، تعلمنا من ابن مالك ـ مثلاً ـ ورأينا منه ، وهو العالم النحوي البارع ، رغم ما أبدع وأجاد في كتابه الألفية ، أعطى الأولوية والأفضلية لمن سبقه فيما صنع ، فقال قوله :

وَهُـوَ بِسَبْـقٍ حَـائِـزٌ تَفْضِيـلاَ مُسْتَـوْجِـبٌ ثَنَـائِـيَ الْجَمِيـلاَ

أجل ، إنّ الدكتور محمد سعيد نفع الله المسلمين بعلومه ، سبقنا في أمور كثيرة لا نتردد فيه ، سبقنا بفضله وبشيبته وعلمه وعمله ، وكتابته وأدبه ، وغير ذلك ممَّا لا حصر له ، فلذلك يستوجب منَّا ثناءً جميلاً

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير [مجمع الزوائد : ١/١٢٢] عن أبي أمامة رضي الله عنه .

وشكراً جزيلاً ، واحتراماً كثيراً ، وتقديراً كبيراً ، لذلك أستسمح منه ومن القرّاء الأعزّاء من ذلّةٍ وقعتْ ، وكبوةٍ حصلت ، وشطحة قلمٍ لا علم لنا فيها ولا قصد ، وكما لم أقصد بما كتبت أو نقلت إلّا أن أُبين حسب قناعتي وعقيدتي حقيقة من الحقائق ليس إلّا ؛ لا أنْ أمس أو أطعن به أحداً عالماً كان أو جاهلاً ، بعيداً كان أو قريباً ، معاذ الله أن أكون من الجاهلين ، والله أعلم بالصواب ، وأدرى بالحقائق .

واستغفر الله العظيم لي ولوالديَّ وللدكتور ، وللمؤمنين والمؤمنات ، والحمد لله ربِّ العالمين .

□ □ □

مصادر الكتاب

إحياء علوم الدين /للإمام الغزالي/

تنوير القلوب للشيخ / محمد أمين الكردي/

الحدائق الوردية للشيخ /عبد المجيد الخاني/

السعادة الأبدية للشيخ / عبد المجيد الخاني/

رشحات عين الحياة للشيخ /علي الواعظ الهروي/

الرحمة الهابطة في تحقيق الرابطة للشيخ /حسين الدوسري/

رسالة تعريف المحبين في أنوار فيوضات النبي ﷺ للشيخ /رشيد التادفي

رسالة للشيخ /حيدري إبراهيم زاده/ في الرابطة

مكتوبات الإمام الربّاني

مكتوبات الشيخ /خالد النقشبندي/

مكتوبات الشيخ /عبد الحمن التاغي/

مكتوبات الشيخ /فتح الله الورقانسي/

مكتوبات الشيخ /أحمد الخزنوي /

مكتوبات الشيخ/محمد معشوق السيدا/

مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية – الطبعة الأولى

الفهرس

الفصل العشرون